من مسالك الأبصار

لابن

فضل العمري

obeikandl.com

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد واله وسلم

سنة إحدى وأربعين إلى سنة خمسين وخمسمائة

ذكر استيلاء الفرنج على طرابلس

وسبب ذلك أنهم نزلوا عليها وحاصروها فلما كان اليوم الثالث من نزولهم سمع الفرنج في المدينة ضجة عظيمة،وخلت الأسوار من المقاتلة وسببه أن أهل طرابلس اختلفوا فأرادت طائفة منهم تقديم بني مطروح، فوقع الحرب بين الطائفتين، وخلت الأسوار، فانتهز الفرنج الفرصة، وطلعوا بالسلالم وملكوها بالسيف في محرم هذه السنة، وسفكوا دماء أهلها، وبعد أن استقر الفرنج في طرابلس بذلوا الأمان لمن بقي من أهل طرابلس وتراجعت إليها الناس وحسن حالها[1]

وفيها سار زنكي ونزل على قلعة جعبر وحصرها وصاحبها علي بن مالك بن سالم بن مالك بن بدران بن المقلد العقيلي، وأرسل عسكراً إلى قلعة فنك، وهي تجاوز جزيرة ابن عمر فحصرها أيضاً وصاحبها حسام الدين الكردي البشنوي، ولما طال على زنكي منازلة قلعة جعبر أرسل مع حسان البعلبكي الذي كان صاحب منبج يقول لصاحب قلعة جعبر: قل لي من يخلصك مني؟ فقال صاحب جعبر: يخلصني منك الذي خلصك من بلك بن بهرام بن أُرتق، وكان بلك محاصراً لمنبج فجاءه سهم فقتله، فرجع حسان إلى زنكي يخبره بذلك، فاستمر زنكي منازلاً قلعة جعبر، فوثب عليه جماعة من مماليكه وقتلوه في خامس ربيع الآخر هذه السنة بالليل، وهربوا إلى قلعة جعبر، وصاح من بها على العسكر وأعلموهم بقتل زنكي، فدخل أصحابه إليه وفيه رمق، وكان عماد الدين زنكي حسن الصورة ، أسمر اللون، مليح العينين، قد وخطه الشيب، وكان قد زاد عمره على ستين سنة، ودفن بالرقة، وكان شديد الهيبة على

عسكره عظيمها، كان لـه الموصل وما معها من البلاد، وملـك الشام خلا دمشق، وكان شجـاعاً وكانت الأعـداء تحيط بمملكته من كـل جهة وهو ينتصف منهم، ويستولي على بلادهم.

ولما قتل زنكي كـان ولده نور الديـن محمود حاضراً عنده وأخـذ خاتم والده وهو ميت من أصبعه وسـار إلى حلب فملكها، وكان صحبة زنكي أيضاً الملـك ألب أرسـلان بن محمـود بن محمـد بن ملكشـاه السلجوقـي فـركب في يـوم قتل زنكـي واجتمعت عليـه العسـاكر فحسـن له بعـض أصحـاب زنكي الأكـل والشرب وسماع المغـاني، فسـار ألب أرسـلان إلى الرقة وأقـام بها منعكفاً على ذلك.وأرسل كبراء دولة زنكـي إلى ولده سيف الدين غـازي بن زنكي يعلمونـه بالحال وهو بشهرزور، فسـار إلى الموصل واستقـر في ملكها، وأمـا ألب أرسـلان فتفرقـت عنه العسـاكر وسـار إلى الموصل يريد ملكها، فلما قرب منها قبـض عليه غازي بن زنكي، وحبسه في قلعة الموصل واستقر ملك سيف الدين غازي للموصل وبلادها.

وفيها أرسل عبد المؤمـن بن علي جيشاً إلى جزيرة الأندلـس فملكوا ما فيها من بلاد الإسلام، واستولى عليها.

وفيها بعد قتل عماد الدين زنكي قصد مجير الدين ابن صاحب دمشق حصن بعلبك وحصره، وكـان به نجم الدين أيوب بـن شاذي مستحفظاً فخاف أن أولاد زنكي لايمكنهـم انجاده العاجل، فصـالحه وسلم القلعة إليه، وأخـذ منه اقطاعـا ومالاً وملكه عدة قـرى من بلاد دمشـق، وانتقل أيوب إلى دمشق وسلمها.

وفي سنة اثنتين وأربعين

دخل نـور الدين محمود بـن زنكي صاحـب حلب بلاد الفرنـج ففتح منها أرتـاح بالسيـف وحصن مامـولا وبصرفوت وكفـر لاثا، وفيهـا ملك

الفرنج المهدية بإفريقية. وكان قد حصل بإفريقية غلاء شديد حتى أكل الناس بعضهم بعضا ودام من سنة تسع وثلاثين وخمسمائة إلى هذه السنة، ففارق الناس القرى ودخل أكثرهم صقلية فاغتنم رجاز الفرنجي صاحب صقلية هذه الفرصة وجهز اسطولاً نحو مائتين وخمسين شينيا مملوءة رجالاً وسلاحاً واسم مقدمهم جرج، وساروا من صقلية إلى جزيرة قوصرة، وهي ما بين المهدية وصقلية، وساروا منها وأشرفوا على المهدية ثامن صفر هذه السنة وكان في المهدية الحسن بن علي بن يحيى بن تميم ابن المعز بن باديس الصنهاجي صاحب إفريقية، فجمع كبار البلد واستشارهم فرأ واضعف حالهم، وقلة المونة عندهم، فاتفق رأي الأمير حسن على إخلاء المهدية ، فخرج منها وأخذ ما خف حمله، وخرج أهل المدينة على وجوههم بأهليهم وأولادهم وبقي الاسطول في البحر يمنعه الريح من الوصول إلى المهدية، ثم دخلوا المهدية بعد مضي ثلثي النهار المذكور بغير مانع ولا مدافع، ولم يكن قد بقي من المسلمين بالمهدية ممن عزم على الخروج أحد، ودخل جرج مقدم الفرنج إلى قصر الأمير حسن فوجده على حاله لم يعدم منه إلا ما خف حمله، ووجد فيه جماعة من حظايا الحسن والذخائر مملوءة من الذخاير النفسية من كل شيء غريب، وسار الأمير حسن بأمواله وأولاده إلى بعض أمراء الغرب ممن كان يحسن إليه، وأقام عنده وأراد الحسن المسير إلى الخليفة الحافظ العلوي صاحب مصر فلم يقدر على ذلك لخوف الطرق، فسار إلى ملك بجاية يحيى بن العزيز من بني حماد، فوكل يحيى المذكور على الحسن وعلى أولاده من يمنعهم من التصرف ولم يجتمع يحيى بهم. فأنزلهم في جزائر بني مزغنان، وبقي حسن كذلك حتى ملك عبد المؤمن بن علي بجاية في سنة سبع وأربعين وخمسمائة وأخذها هي وجميع ممالك بني حماد فحضر الأمير حسن عنده فأحسن إليه عبد المؤمن وأكرمه، واستمر في خدمة عبد المؤمن إلى أن ملك عبد المؤمن المهدية، وأقام حسن فيها، وأمر عبد المؤمن الوالي الذي ولاه على المهدية أن يقتدي برأي الأمير حسن،

ويرجع إلى قوله، وكان عدة من ملك من بني باديس بن زيري بن مناد إلى الحسن تسعة ملوك، وكانت ولايتهم في سنة إحدى وستين وثلاثمائة ، وانقضت في سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ، ثم إن جرج بذل الأمان لأهل المهدية، وأرسل وراءهم بذلك وكانوا قد أشرفوا على الهلاك من الجوع ، فتراجعوا إلى المهدية.

وفيها سار ملك الألمان - والألمان بلادهم وراء بلاد القسطنطينية - حتى وصل إلى الشام في جمع عظيم، ونزل على دمشق وحصرها وصاحبها مجير الدين أبق بن جمال الدين محمد بن بوري، والحكم وتدبير المملكة لمعين الدين أنر مملوك جده طغتكين ، وفي سادس ربيع الآخر زحفوا على دمشق ونزل ملك الألمان بالميدان الأخضر، وأرسل أنر إلى سيف الدين غازي صاحب الموصل يستنجده ، فسار بعسكره وسار معه أخوه نور الدين محمود بعسكره ونزلوا على حمص ففت ذلك في أعضاد الفرنج، وأرسل أنر إلى فرنج الشام يبذل لهم قلعة بانياس، فتخلوا عن ملك الألمان واشاروا عليه بالرحيل وخوفوه من امداد المسلمين، فرحل عن دمشق إلى بلاده، وسلم أنر قلعة بانياس إلى الفرنج حسبما شرطه لهم.

وفيها كان من نور الدين محمود ومن الفرنج مصاف بأرض يغرا من العمق، فانهزم الفرنج، وقتل منهم جماعة ، وأسر جماعة، وأرسل من الأسرى والغنيمة إلى أخيه سيف الدين غازي صاحب الموصل.

وفيها ملك الفرنج من الأندلس مدينة طرطوشة وجميع قلاعها، وحصون لارده.

وفيها كان الغلاء العام من خراسان إلى العراق إلى الشام إلى المغرب.

وفيها قُتل نور الدين شاهنشاه بن أيوب أخو صلاح الدين، قتلته

الفرنج في منازلتهم لدمشق، فجرى بينهم وبين المسلمين مصاف قتل فيه، شاهنشاه، وهو أكبر من صلاح الدين وكانا شقيقين.

وفي سنة أربع وأربعين

توفي غازي بن عماد الدين أتابك زنكي، صاحب الموصل بمرض حاد في أواخر جمادى الآخرة ، وكانت ولايته ثلاث سنين وشهراً وعشرون يوماً، وكان حسن الصورة، ومولده سنة خمسمائة وخلف ولداً ذكراً فرباه عمه نور الدين، وأحسن إليه، وتوفي المذكور شاباً وانقرض بموته عقب سيف الدين غازي، وكان سيف الدين كريماً، يصنع لعسكره كل يوم طعاماً كثيراً بكرةً وعشياً، وهو أول من حمل على رأسه السنجق في ركوبه، وأمر الأجناد أن لايركبوا إلاّ بالسيوف في أوساطهم، والدبوس تحت ركبهم، فلما فعل ذلك اقتدى به أصحاب الأطراف فلما توفي سيف الدين غازي كان أخوه قطب الدين مودود بن زنكي مقيماً بالموصل، فاتفق جمال الدين الوزير وزين الدين أمير الجيش على تمليكه، فحلفاه وحلفا له، وأطاعه جميع بلاد سيف الدين أخيه، ولما تملك تزوج الخاتون ابنة حسام الدين تمرتاش، صاحب ماردين، وكان أخوه سيف الدين قد ملكها، ومات قبل الدخول بها، وهي أم أولاد قطب الدين.

وفيها توفي الحافظ العلوي صاحب مصر، وكانت خلافته عشرين سنة إلاّ خمسة أشهر، وعمره نحواً من سبع وسبعين سنة ولم يل الأمر من الخلفاء العلويين بمصر من أبوه غير خليفة غير الحافظ والعاضد على ما سنذكره، ولما توفي الحافظ بويع بعده ولده الظافر بأمر الله أبو منصور اسماعيل، واستوزر ابن مصال ، فبقي أربعين يوماً، وحضر من الاسكندرية العادل بن السلار ، وكان قد خرج ابن مصال في طلب بعض المفسدين ، فأرسل العادل بن السلار ربيبه عباس بن أبي الفتوح ابن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجي وكان أبوه أبو الفتوح قد

فارق أخاه علي بن يحيى صاحب إفريقية، وقدم إلى الديار المصرية، وتوفي بها فتزوج العادل بن السلار بزوجة أبي الفتوح، ومعها ولدها فرباه العادل وأحسن تربيته، ولما قدم العادل إلى مصر يريد الاستيلاء على الوزارة أرسل ربيبه عباس في عسكر إلى ابن مصال فظفر به عباس وقتله، وعاد إلى العادل بالقاهرة فاستقر العادل في الوزارة ، وتمكن ولم يكن للخليفة معه حكم ، وبقي كذلك إلى سنة ثمان وأربعين وخمسمائة فقتله ربيبه عباس، وتولى الوزارة على ما سنذكره.

وفيها حصر نور الدين محمود بن زنكي حصن حارم، فجمع البرنس صاحب أنطاكية الفرنج، وسار إلى نور الدين محمود، واقتتلوا فانتصر نور الدين ، وقتل البرنس، وانهزم الفرنج، وكثر القتل فيهم، ولما قتل البرنس ملك بعده ابنه بيمند، وهو طفل، وتزوجت أمه برجل آخر وسمي بالبرنس، ثم إن نور الدين غزاهم غزوة أخرى فهزمهم وقتل فيهم وأسر، وكان فيمن أسر البرنس الثاني زوج أم بيمند، فتمكن حينئذ بيمند في ملك أنطاكية.

وفيها زلزلت الأرض زلزلة شديدة ، وفيها توفي معين الدين أنر صاحب دمشق، وهو الذي كان ينسب إليه الحكم فيها، وإليه ينسب قصر معين الدين الذي في الغور.

وفيها تولى أبو المظفر يحيى بن هبيرة وزارة الخليفة المقتفي يوم الأربعاء رابع ربيع الآخر، وكان قتل ذلك اليوم صاحب ديوان الزمام،

وفي سنة خمس وأربعين

في رابع عشر المحرم أخذت العرب جميع الحجاج بين مكة والمدينة ، فهلك أكثرهم ولم يصل منهم إلى البلاد إلاّ القليل.

وفيها سار نور الدين محمود بن زنكي إلى فامية وحصر قلعتها وتسلمها من الفرنج، وحصنها بالرجال والذخائر، وكان قد اجتمع الفرنج وساروا ليرحلوه عنها فملكها قبل وصولهم، فلما بلغهم فتحها تفرقوا.

وفيها سار الأدفونش صاحب طليطلة، بجموع الفرنج إلى قرطبة وحصرها ثلاثة أشهر ولم يملكها ، ورحل عنها .

وفي سنة ست وأربعين

انهزم نور الدين من جوسلين ثم أسر جوسلين، وكان جوسلين من أعظم فرسان الفرنج قد جمع بين الشجاعة وجودة الرأي، وكان نور الدين قد عزم على قصد بلاده، فجمع جوسلين الفرنج وأكثر وسار نحو نور الدين والتقوا، فانهزم المسلمون وأسر منهم جمع كثير وكان من جملة من أسر منهم السلاح دار ، ومعه سلاح نور الدين ، فأرسله جوسلين إلى مسعود بن قلج أرسلان صاحب قونية وأقصرا، وقال: هذا سلاح زوج ابنتك وسيأتيك بعده ما هو أعظم منه، فعظم ذلك على نور الدين وهجر البلاد، وأفكر في أمر جوسلين وجمع التركمان وبذل لهم الوعود إن ظفروا به إما بإمساك أو بقتل ، فأتفق أن جوسلين طلع إلى الصيد فحبسه التركمان وأمسكوه، فبذل لهم مالاً فأجابوا إلى إطلاقه، فسار بعض التركمان إلى أبي بكر بن الدايةُ نائب نور الدين بحلب، فأرسل عسكراً كبسوا التركمان الذين عندهم جوسلين وأحضروه إلى نور الدين أسيراً، وكان أسر جوسلين من أعظم الفتوح، وأصيبت النصرانية كافة بأسره، ولما أسر سار نور الدين إلى بلاده وقلاعه وملكها وهي : تل باشر وعين تاب، ودلوك، وأعزاز، وتل خالد، وقورس، والراوندان، وبرج الرصاص، وحصن البارة، وكفر سود، وكفر لاثا، ومرعش، ونهر الجوز،

وغير ذلك في مدة يسيرة، وكان نور الدين كلما فتح منها موضعاً حصنه بما يحتاج إليه من الرجال والذخائر.

وفي سنة تسع وأربعين

سار عبد المؤمن بن علي إلى بجاية وملكها وملك جميع ممالك بني حماد وأخذها من صاحبها يحيى بن العزيز آخر ملوك بني حماد، وكان يحيى المذكور مولعاً بالصيد واللهو لاينظر في شيء من أمر مملكته، ولما هزم عبد المؤمن عسكر يحيى هرب يحيى وتحصن بقلعة قسنطينة من بلاد بجاية، ثم نزل يحيى إلى عبد المؤمن بالأمان فأمنه وأرسله إلى بلاد المغرب، وأقام بها وأجرى عليه عبد المؤمن رزقاً كثيراً، وقد ذكر في تاريخ القيروان أن مسير عبد المؤمن وملك تونس وإفريقية إنما كان في سنة أربع وخمسين.

وفي هذه السنة في أول رجب توفي السلطان مسعود بن محمد بن السلطان ملكشاه بهمذان، ومولده سنة اثنتين وخمسمائة في ذي القعدة، ومات معه سعادة البيت السلجوقي،فلم يقم لهم بعده راية يعتز بها، وكان حسن الأخلاق كثير المزاح والانبساط مع الناس، كريماً عفيفاً عن أموال الرعايا، ولما مات عهد بالملك إلى ابن أخيه ملكشاه بن محمود فقعد في السلطنة ، وخطب له، وكان المتغلب على المملكة أمير يقال له خاص بيك وأصله صبي تركماني اتصل بخدمة مسعود فتقدم على سائر أمرائه، ثم إن خاص بيك المذكور قبض على السلطان ملكشاه بن محمود وسجنه، وأرسل إليه أخيه محمد بن محمود وهو بخوزستان فأحضره، وتولى السلطنة ، وجلس على السرير، وكان قصد خاص بيك أن يمسكه ويخطب لنفسه بالسلطنة، فبدره السلطان محمد ثاني يوم وصوله، فقتل خاص بيك، وقتل معه زنكي الجامدار، وألقى برأسيهما فتفرق أصحابهما.

وفيها جمعت الفرنج وساروا إلى نور الدين وهو محاصر دلوك فرحل عنها وقاتلهم أشد قتال وهزمهم وقتل وأسر منهم خلق كثير، ثم عاد نور الدين إلى دلوك فملكها، ومما مدح به في ذلك:

أعددت بعصرك هذا الجديد
فتوح النبي وأعصارها
وفي تل باشر باشرتهم
بزحف تسور أسوارها
وإن دالكتهم دلوك
فقد سددت فصدقت أخبارها

ذكر ملك نور الدين محمود دمشق

كان الفرنج قد تغلبوا بتلك الناحية بعد ملكهم عسقلان ، حتى أنهم استعرضوا كل جارية ومملوك بدمشق من النصارى، وأطلقوا قهراً من أراد منهم الخروج من دمشق واللحوق بوطنه شاء صاحبه أم أبى، فخشي نور الدين محمود بن زنكي أن يملكوا دمشق، فكاتب أهل دمشق واستمالهم في الباطن، ثم سار إليها وحصرها ففتح له باب الشرقي، فدّخل وملك المدينة، وحصر مجير الدين أبق بن محمد بن بوري بن طغتكين في القلعة وبذل له اقطاعاً من جملته مدينة حمص، فسلم مجير الدين القلعة إلى نور الدين وسار إلى حمص فلم يعطه إياها نور الدين وأعطاه عوضها بالس، فلم يرضها مجير الدين، وسا ر عنها إلى العراق ، وأقام ببغداد وابتنى داراً بقرب النظامية وسكنها حتى مات بها . وفيها أخذ نور الدين قلعة تل باشر من الفرنج.

سنة إحدى وخمسين إلى ستين وخمسمائة

في سنة إحدى وخمسين ثارت أهل بلاد إفريقية على من بها من الفرنج فقتلوهم، وسار عسكر عبد المؤمن فملك بونه، وخرج جميع أهل إفريقية

عن طاعة الفرنج ما عدا المهدية وسوسة، وفيها قبض زين الدين علي كوجك نائب قطب الدين مودود بن زنكي صاحب الموصل على الملك سليمان شاه بن السلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي، وكان سليمان المذكور قد قدم بغداد وخطب له بالسلطنة في هذه السنة ، وخلع عليه الخليفة ، وقلده السلطنة على عادتهم، وخرج من بغداد بعسكر الخليفة ليملك به بلاد الجبل، فاقتتل هو وابن عمه السلطان محمد بن محمود بن ملكشاه، فانهزم سليمان شاه، وسار يريد بغداد على شهرزور، فخرج إليه كوجك بعسكر الموصل فأسره وحبسه بقلعة الموصل مكرماً إلى أن كان منه ما نذكره في سنة خمس وخمسين ، وفيها تاسع جمادى الآخرة توفي خوارزم شاه أطسز بن محمد بن أنوشتكين، وكان قد أصابه فالج فاستعمل أدوية شديدة الحرارة، فاشتد مرضه وتوفي، وكانت ولادته في رجب سنة تسعين وأربع مائة ، وكان حسن السيرة، وملك بعده ابنه أرسلان.

وفيها توفي الملك مسعود بن قلج أرسلان بن سليمان بن قطلومش بن أرسلان بن سلجوق صاحب قونية وغيرها من بلاد الروم، ولما توفي ملك بعده ابنه قلج أرسلان.

وفيها في رمضان هرب السلطان سنجر بن ملكشاه من أسر الغز وسار إلى قلعة ترمذ ثم إلى جيحون، ووصل إلى دار ملكه مرو، وكانت مدة أسره من سادس جمادى الأولى سنة ثمان وأربعين إلى رمضان سنة إحدى وخمسين.

وفيها بايع عبد المؤمن لولده محمد بولاية العهد، وكانت ولاية العهد بعده لأبي حفص عمر، وكان من أصحاب ابن تومرت من أكبر الموحدين،فأجاب إلى خلع نفسه والبيعة لابن عبد المؤمن، وفيها استعمل عبد المؤمن أولاده على البلاد، فاستعمل ابنه عبد الله على بجايةوأعمالها،

وابنه عمر على تلمسان وأعمالها، وابنه علياً على فاس وأعمالها، وابنه أبا سعيد على سبته والجزيرة الخضراء وما لقه وكذلك غيرهم.

وفيها سار الملك محمد بن سلطان محمد السلجوقي من همذان بعساكره إلى بغداد وحصرها، وجرى بينهم قتال، وحصن الخليفة دار الخلافة واعتد للحصار ، واشتد الأمر على أهل بغداد وبينا الملك محمد على ذلك إذ وصل إليه الخبر أن أخاه ملك شاه وألدكز صاحب بلاد أران، ومعه الملك أرسلان بن طغريل بن السلطان محمد، وكان ألدكز مزوجاً بأم أرسلان المذكور، قد دخلوا إلى همذان، فسار الملك محمد من بغداد إليهم في الرابع والعشرين من ربيع الأول.سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة

وفيها احترقت بغداد فاحترق درب قراسا، ودرب اللبان وخزانه ابن جرد، والظفرية والخاتونية، ودار الخلافة وباب الأزج، وسوق السلطان، وغير ذلك .

وفيها قتل مظفر بن حماد صاحب البطيحة في الحمام، وتولى بعده ابنه.

وفي سنة اثنتين وخمسين

في رجب كان بالشام زلازل قوية، فخربت بها حماه، وشيزر، وحمص، وحصن الأكراد، وطرابلس، وأنطاكية وغيرها من البلاد المجاورة لها حتى وقعت الأسوار والقلاع فقام نور الدين بن زنكي في ذلك القيام الرضي من تداركها بالعماره وإغارته على الفرنج ليشغلهم عن قصد البلاد وهلك تحت الردم مالا يحصى، ويحكى أن معلم كتاب كان بمدينة حماه فارق المكتب، وجاءت الزلزلة فسقط المكتب على الصبيان كلهم فلم يحضر أحد يسأل عن صبي هناك لهلاكهم، ولما خربت شيزر بهذه الزلزلة وسقط سورها فبادر إليها بعض أمراء نور الدين محمود بن زنكي، وكان بالقرب منها ، فصعد إليها، وتسلمها وتملكها، وعمر أسوارها، وكانت شيزر لبني منقذ الكنانيين يتوارثونها من أيام صالح بن مرداس، هكذا ذكر ابن الأثير في الكامل أن بني منقذ المذكورين ملكوا شيزر من أيام صالح بن مرداس[٢]وكان ملك صالح بن مرداس حلب في سنة أربع عشرة وأربع مائة وانقضى ملكه سنة عشرين وأربع مائة وقد ذكر (غير) ابن الاثير مثل القاضي شمس الدين ابن خلكان، والقاضي شهاب الدين ابن أبي الدم الحموي وغيرهما ما يخالف ذلك، ونحن نذكر ما قالوه مختصراً، ثم نرجع إلى ما ذكره ابن الأثير قالوا: وفي سنة أربع وتسعين وأربعمائة استولى بنو منقذ على شيزر وأخذوها من الروم، قال ابن أبي الدم :وكان فتحها منهم علي بن مقلد بن نصر بن منقذ ، قال: ورد كتابه إلى بغداد لشرح قصته ، فمنه بعد البسملة :« كتابي من حضره شيزر، حماها الله تعالى، وقد رزقني الله عز وجل من الاستيلاء على هذا المعقل العظيم مالم يتأت لمخلوق في هذا الزمان وإذا عرف الأمر على حقيقته علم أني هاروت هذه الأمة ، وسليمان الجن والمردة وأنني أفرق بين المرء وزوجته واستنزل القمر من محله، أنا أبو النجم والشعرى شعري نظرت إلى هذا الحصن فرأيت أمراً يذهل الألباب يسع ثلاثة آلاف بالأهل والمال ويمسكه خمس نسوة، فعمدت إلى تل بينه وبين حصن

الروم يعرف بالخراص، ويسمى هذا التل تل الجسر فعمرته حصناً، وجمعت فيه أهلي وعشيرتي، وقفزت قفزة على حصن الخراص فأخذته بالسيف من الروم، ومع ذلك فلما أخذت من به من الروم أحسنت إليهم وأكرمتهم ومزجتهم بأهلي وعشيرتي، وخلطت خنازيرهم بغنمي ونواقيسهم بصوت الآذان ، فرأى أهل شيزر فعلي ذلك وأنسوا بي، ووصل إليهم مني الأكرام والاتحاف، فوصل إليّ منهم نصفهم، فبالغت في إكرامهم، ووصل إلي مسلم بن قريش فقتل منهم من أهل شيزر نحو عشرين رجلاً فلما انصرف عنهم مسلم سلموا الحصن إليّ» هذا خلاصة ما ذكره القاضي شهاب الدين المذكور، وبين ما ذكره وما ذكره ابن الأثير من التفاوت أكثر من خمسين سنة.

قال الملك عماد الدين[٣] :والذي يخطر لي أن ما ذكره ابن الأثير أولى، لأن حماة وشيزر فتحتا مع الشام على يد أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه، واستمر الشام للمسلمين إلى حدود سنة تسعين وأربع مائة، فسار الفرنج إلى الشام وملكوا أعاليه بسبب اشتغال ملوك المسلمين بقتال بعضهم بعضاً، ولم يذكر ملكهم لشيزر.

قال ابن الأثير: فلما انتهى ملك شيزر إلى نصر بن علي بن منقذ استمر فيها إلى أن مات سنة إحدى وتسعين وأربعمائة، فلما حضره الموت استخلف أخاه مرشد بن علي على حصن شيزر، فقال مرشد: والله لا وليته ولأخرجن من الدنيا كما دخلتها، ومرشد هو والد مؤيد الدولة أسامة ابن منقذ، فلما امتنع مرشد من الولاية ولاها نصر أخاه الصغير سلطان الدولة بن علي، واستمر مرشد مع أخيه سلطان على أجمل صحبة مدة من الزمان وكان لمرشد عدة أولاد نجباء، ولم يكن لسلطان ولد، ثم جاء لسلطان أولاد، فخشي عليهم من أولاد أخيه مرشد ،وسعى المفسدون بين مرشد وسلطان، فتغير كل منهما على صاحبه فكتب سلطان إلى أخيه مرشد أبياتاً يعاتبه، وكان مرشد عالماً بالأدب والشعر،

فأجابه مرشد بقصيدة طويلة منها:

شكت هجرنا والذنب في ذاك ذنبها
فياعجباً من ظالم جاء شاكياً
وطاوعت الواشين فيّ وطالما
عصيت عذولاً في هواها وواشياً
ومال بها تيه الجمال إلى القلى
وهيهات أن أمسي لها الدهر قاليا
ولما أتاني من قريضك جوهر
جمعت المعالي فيه والمعانيا
وكنت قد هجرت الشعر حيناً لأنه
تولى برغمي حين ولى شبابيا
وقلت أخي يرعى بني وأسرتي
ويحفظ عهدتي فيهم وذماميا
فما لك لما أن حنى الدهر صعدتي
وثلم مني صار ما كان ماضيا
تنكرت حتى صار برك قسوة
وقربك مني جفوة وتنائيا
على أنني ما حلت عما عهدته
ولا غيرت هذي الشؤون ورادياً

وكان الأمر بين مرشد وأخيه سلطان فيه تماسك إلى أن توفي مرشد سنة إحدى وثلاثين وخمس مائة، فأظهر سلطان التغير على أولاد أخيه وجاهرهم بالعداوة ففارقوا شيزر، وقصد أكثرهم نور الدين محمود بن زنكي، وشكوا إليه من عمهم سلطان، فغاظه ذلك ولم يمكنه قصده لانشغاله بجهاد الفرنج، وبقي سلطان كذلك إلى أن توفي وولي بعده أولاده، فلما خربت القلعة هذه السنة بالزلزلة لم ينج من بني منقذ الذين كانوا بها أحد، كان صاحبها قد ختن ولده وعمل دعوة للناس، وأحضر جميع بني منقذ في داره، وجاءت الزلزلة فسقطت القلعة والدار عليهم

فهلكوا عن آخرهم، وكان لصاحب شيزر بن منقذ حصان يحبه، ولايزال على باب داره، فلما سقطت الدار سلم من بني منقذ واحد وهرب يطلب باب الدار فلما خرج رفسه الحصان المذكور فقتله ، وتسلم نور الدين القلعة والمدينة.

وفي هذه السنة توفي السلطان سنجر بن ملكشاه بن ألب أرسلان بن داود بن ميخائيل بن سلجوق وأصابه قولنج، ثم اسهال فمات منه، ومولده بسنجار في رجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة استوطن مدينة مرو في خراسان، وقدم بغداد مع أخيه السلطان محمد واجتمع بالخليفة المستظهر ، فلما مات محمد خوطب سنجر بالسلطان ، واستقام أمره وأطاعته السلاطين، وخطب له على منابر الاسلام بالسلطنة نحو أربعين سنة، وكان قبلها يخاطب بالملك نحو عشرين سنة، ولم يزل أمره عاليا إلى أن أسره الغز، ولما خلص من أسرهم وكاد أن يعود إليه ملكه أدركه أجله، وكان مهيباً كريماً، وكانت البلاد في زمانه آمنة، ولما وصل خبر موته إلى بغداد قطعت خطبته، ولما حضر السلطان سنجر الموت استخلف على خراسان الملك محمود بن محمد بن بغراخان ، وهو ابن أخت سنجر، فأقام خائفاً من الغز.

وفيها استولى أبو سعيد بن عبد المؤمن على غرناطة من الاندلس وأخذها من الملثمين، وانقرضت دولة الملثمين ولم يبق لهم غير جزيرة ميورقة، ثم سار أبو سعيد في جزيرة الأندلس وفتح المرية، وكانت بأيدي الفرنج مدة عشر سنين.

وفيها أخذ نور الدين بعلبك من انسان كان استولى عليها يقال له الضحاك البقاعي، وكان قد ولاه صاحب دمشق عليها، فلما ملك نور الدين دمشق استولى الضحاك على بعلبك.

وفيها قلع الخليفة المقتفي باب الكعبة وعمل عوضه باباً مصفحاً بالفضة والذهب ، وعمل لنفسه من الباب الأول تابوتاً فدفن فيه.

وفي سنة ثلاث وخمسين

قصد السلطان ملكشاه بن محمود السلجوقي قم وقاشان ونهبها وكان أخوه السلطان محمد بن محمود بعد رحيله عن حصار بغداد قد مرض، وطال مرضه، فأرسل إلى أخيه محمد أن يكف عن النهب ويجعله ولي عهده، فلم يقبل ملكشاه ذلك، ثم سار ملكشاه إلى خوزستان فأخذها من صاحبها شملة التركماني.

وفي أواخر سنة أربع وخمسين

نزل عبد المؤمن على مدينة المهدية، وأخذها من الفرنج يوم عاشوراء سنة خمس وخمسين، وملك جميع إفريقية، وكان قد ملك الأفرنج إفريقية في سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة، وأخذوها من صاحبها الحسن بن علي بن يحيى بن تميم الصنهاجي، وبقيت في أيديهم إلى هذه السنة ففتحها عبد المؤمن ، فكان ملك الفرنج للمهدية اثني عشرة سنة تقريباً، ولما ملكها عبد المؤمن أصلح أحوالها، واستعمل عليها بعض أصحابه، وكان قد سار إلى بني حماد ملوك بجاية، ثم اتصل بعبد المؤمن حسبما تقدم، فأقام عنده مكرماً إلى هذه السنة ، فأعاده عبد المؤمن إلى المهدية وأعطاه بها دوراً نفيسة واقطاعاً، ثم رحل عبد المؤمن عنها إلى المغرب.

وفيها توفي السلطان محمد بن محمود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي في ذي الحجة ، وهو الذي حاصر بغداد، ولما عاد عنها لحقه سل وطال به فمات بباب همذان، وكان مولده في ربيع الآخر سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة وكان كريماً عاقلاً خلف ولداً صغيراً، ولما حضره الموت سلم ولده إلى آق سنقر الأحمديلي، وقال أنا أعلم أن العساكر لاتطيعه لأنه

طفل، فهو وديعة عندك فأرحل به إلى بلادك فرحل.به آق سنقر إلى بلد مراغة، ولما مات السلطان محمد اختلفت الأمراء فطائفة طلبت ملكشاه أخاه ، وطائفة طلبوا سليمان شاه بن محمد بن ملكشاه بن السلطان ألب أرسلان الذي كان اعتقل في الموصل، وهم الأكثر ، ومنهم من طلب أرسلان بن طغريل الذي مع ألدكز، وبعد موت محمد سار أخوه ملكشاه إلى أصفهان وملكها.

وفيها مرض نور الدين محمود بن زنكي مرضاً شديداً وأرجف بموته بقلعة حلب فجمع أخوه أمير ميران بن زنكي جمعاً، وحصر قلعة حلب، وكان شيركوه بحمص، وهو من أكبر أمراء نور الدين ، فسار إلى دمشق ليستولي عليها، وبها أخوه نجم الدين أيوب، فأنكر عليه أيوب ذلك، وقال أهلكتنا ، المصلحة أن تعود إلى حلب فإن كان نور الدين حياً خدمته في هذا الوقت ، وإن كان ميتاً فأنا في دمشق أكفيكها، فعاد شيركوه إلى حلب مجداً، وجلس نور الدين في شباك يراه الناس، فلما رأوه حياً تفرقوا عن أخيه أمير ميران، واستقامت الأحوال .

وفيها استقر في ملك اليمن علي بن مهدي وأزال ملك بني نجاح على ما قدمنا ذكره في سنة اثنتي عشرة وأربعمائة، وعلي بن مهدي المذكور من حمير من قرية يقال لها العنبرة من سواحل زبيد، كان أبوه مهدي رجلاً صالحاً ونشأ ابنه على طريقة أبيه في العزلة والتمسك بالصلاح، ثم حج واجتمع بالعراقيين، وتضلع من معارفهم، ثم صار واعظاً وكان فصيحاً صبيحاً، حسن الصوت، عالماً بالتفسير، غزير المحفوظات، وكان يتحدث في شيء من أحوال المستقبلات فيصدق، فمالت إليه القلوب واستفحل أمره ، وصار له جموع ، فقصد الجبال وأقام بها إلى سنة إحدى وأربعين وخمسمائة ثم عاد إلى أملاكه، وكان يقول في وعظه:أيها الناس دنا الوقت ،أزف الأمر كأنكم بما أقول لكم قد رأيتموه عياناً، ثم عاد إلى الجبال إلى حصن يقال له الشرف وهو لبطن من خولان، فاطاعوه

وسماهم الأنصار وسمى كل من صعد معه من تهامة المهاجرين ، وأقام على خولان رجلاً اسمه سبأ وعلى المهاجرين رجلاً اسمه النويتي، وسمى كلا الرجلين شيخ الإسلام وجعلهما نقيبين على الطائفتين ، فلا يخاطبه أحد غيرهما وهما يوصلان كلامه إلى الطائفتين وحوائجهما إليه، وأخذ يغادي الغارات ويراوحها على التهائم حتى أجلى البوادي، وقطع الحرث والقوافل، ثم إنه حاصر زبيد، واستمر مقيماً عليها حتى قتل فاتك بن محمد آخر ملوك بني نجاح قتله عبيدة، وجرى بين ابن مهدي وعبيد فاتك حروب شديدة وآخر ها أن ابن مهدي انتصر عليهم، وملك زبيد، واستقر في دار الملك يوم الجمعة رابع عشر رجب، اعني سنة أربع وخمسين، وبقي ابن مهدي في الملك شهرين وإحدى وعشرين يوماً، ومات علي بن مهدي في السنة التي ملك فيها، فملك اليمن بعده ولده مهدي ، ثم عبد النبي بن مهدي بن علي بن مهدي ، وخرجت المملكة من عبد النبي إلى أخيه عبد الله ثم عادت إلى عبد النبي واستقر فيها حتى سار إليه توران شاه بن أيوب من مصر في سنة تسع وستين وخمسمائة، وفتح اليمن واستقر في ملكه، وأسر عبد النبي، وهو آخر ملوك اليمن من آل مهدي، وكان مذهب علي بن مهدي التكفير بالمعاصي، وقتل من خالف اعتقاده من أهل القبلة ، واستباحة وطىء سباياهم واسترقاق ذراريهم، وكان حنفي الفروع، وكان أصحابه يعتقدون فيه فوق ما يعتقده الناس في الأنبياء صلوات الله عليهم، ومن مذهبه قتل من سرق ومن سمع الغناء(٤).

وفي سنة خمس وخمسين

سار سليمان شاه إلى همذان وما كان منه إلى أن مات ، وسببه أنه لما مات محمد بن محمود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي أرسلت الأمراء وطلبت عمه سليمان شاه بن محمد بن ملكشاه ليولوه السلطنة، وكان قد اعتقل في الموصل مكرماً، فجهزه قطب الدين مودود بن زنكي صاحب

الموصل بشيء كثير، وجهاز يليق بالسلطنة وسار معه زين الدين علي كوجك بعسكر الموصل إلى همذان، وأقبلت العساكر إليه كل يوم تلقاه طائفة وأمير، ثم تسلطت العساكر عليه ، ولم يبق له حكم، وكان سليمان شاه فيه تهور، وكان يدمن شرب الخمر، حتى شرب في رمضان نهاراً، وكان يجمع عنده المساخر ولا يلتفت إلى الأمراء، فأهمل العسكر بابه، وكانوا لايحضرون بابه، وكان قد رد جميع الأمور إلى شرف الدين كرديان الخادم، وهو من مشايخ خدام السلاجقة يرجع إلى دين وحسن تدبير،فاتفق أن سليمان قعد يشرب بالجبل ظاهر همذان فحضر إليه مشايخ خدام السلاجقة فسلط عليهم المساخر فعبثوا بهم، فحضر إليه كرديان ولامه فأمر المساخر فعبثوا بكرديان أيضاً، حتى أن بعضهم كشفوا له سوءته، فاتفق كرديان مع الأمراء على قبضه، وعمل كرديان دعوة عظيمة فلما حضرها سليمان شاه قبض عليه كرديان وحبسه، وبقي في الحبس مدة ثم أرسل إليه كرديان من خنقه، وقيل سقاه سماً فمات في ربيع الآخر سنة ست وخمسين ، ولما مات سار ألدكز بعشرين ألفاً ومعه أرسلان شاه بن طغريل بن محمد بن ملكشاه ابن السلطان ألب أرسلان ، ووصل إلى همذان فلقيه كرديان وأنزله بدار المملكة وخطب لأرسلان شاه بالمملكة وكان الدكز متزوجاً لأم أرسلان شاه، فولدت لألدكز أولاداً منهم البهلوان محمد وقزل أرسلان عثمان ابنا الدكز، وبقي ألدكز أتابك أرسلان وابنه البلهوان أخو أرسلان لأمه حاجبه، وكان ألدكز أحد مماليك السلطان مسعود اشتراه في أول أمره ثم أقطعه أران وبعض بلاد أذربيجان، فعظم شأنه ، وقوي أمره، ولما خطب لأرسلان شاه بالسلطنة في تلك البلاد أرسل ألدكز إلى بغداد يطلب الخطبة لأرسلان شاه بالسلطنة على عادة الملوك السلجوقية، فلم يجب إلى ذلك ، وقد قدمنا موت سليمان وولاية أرسلان لتتصل الحادثة.

وفيها توفي الفائز بنصر الله أبو القاسم عيسى بن الظافر اسماعيل خليفة مصر، وكانت خلافته ست سنين وشهرين، وكان عمره لما ولي

خمس سنين ولما ولي دخل الصالح ابن رزيك القصر، وسأل عمن يصلح فأحضر منهم إنسان كبير السن، فقال بعض أصحاب الصالح:لايكون عباس أحزم منك حيث اختار الصغير، فأعاد الصالح الرجل إلى موضعه وأحضر العاضد لدين الله أبي محمد عبد الله بن الأمير يوسف بن الحافظ، ولم يكن أبوه خليفة، وكان العاضد ذلك الوقت مراهقاً فبايع له بالخلافة، وزوجه الصالح ابنته ونقل معها من الجهاز مالا سمع بمثله.

وفيها في ربيع الآخر توفي الخليفة المقتفي لأمر الله أبي عبد الله محمد ابن المستظهر أبي العباس أحمد بعلة التراقي.

خلافة المستنجد بالله بن المقتفي ثاني ثلاثين خلفاء بني العباس رضي الله تعالى عنهم

وبويع له لما توفي أبوه المقتفي، وبايعه أهله وأقاربه فمنهم عمه أبو طالب ، ثم أخوه أبو جعفر ، وأمه أم ولد تدعى طاووس، ثم بايع الوزير ابن هبيرة وغيرهم.

وفيها في رجب توفي السلطان خسرو شاه بن بهرام شاه بن مسعود بن إبراهيم بن مسعود بن محمود بن سبكتكين صاحب غزنه ، وكان عادلاً حسن السيرة وكانت ولايته في سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ، ولما مات ملك ابنه ملكشاه وقيل إن خسرو شاه مات في حبس غياث االدين الغوري ، وأنه آخر ملوك آل سبكتكين حسبما تقدم في سنة سبع وأربعين. وفيها توفي السلطان ملكشاه بن محمود بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان بأصفهان مسموماً.

وفيها حج أسد الدين شيركوه بن شاذي مقدم جيش نور الدين محمود بن زنكي.

وفي سنة ست وخمسين

في ربيع الآخر توفي الملك علاء الدين الحسن بن الحسين الغوري ملك الغور. وكان عادلاً حسن السيرة ، ولما مات ملك بعده ابن أخيه غياث الدين محمد ، وقد قدمنا ذلك في سنة سبع وأربعين.

وفيها تقدم المؤيد آي آبه السنجري بامساك أعيان نيسابور لأنهم كانوا رؤساء للحرامية والمفسدين وأخذ المؤيد بقتل المفسدين فخربت نيسابور وكان من جملة ما خرب مسجد عقيل، وكان مجمعاً لأهل العلم ، وكان فيه خزائن الكتب الموقوفة، وخرب من مدارس الحنفية سبع عشرة مدرسة، وأحرق ونهب عدة من خزائن الكتب وأما الشاذياخ[٥] فإن عبد الله بن طاهر بن الحسين بناها لما كان أميراً للمأمون على خراسان وسكنها هو والجند، ثم خربت بعد ذلك، ثم جددت في أيام ألب أرسلان السلجوقي ثم تشعثت بعد ذلك فلما كان الآن وخربت نيسابور ، أمر المؤيد آي آبه بإصلاح سور الشاذياخ وسكنها هو والناس ، فخربت نيسابور كل الخراب، ولم يبق بها أحد.

وفي هذه السنة في رمضان قتل الملك الصالح أبو الغارات طلائع بن رزيك الأرمني وزير العاضد العلوي، جهزت عليه عمة العاضد من قتله بالسكاكين، وهو داخل في دهليز القصر، فحمل إلى بيته وبه رمق فأرسل يعتب العاضد، فأرسل العاضد يحلف له أنه ما علم بذلك، وأمسك العاضد عمته فأرسلها إلى طلائع فقتلها، وسأل العاضد أن يولي ابنه رزيك الوزارة، ولقب العادل، ومات طلائع فاستقر ولده العادل رزيك في الوزارة.

وفيها ملك عيسى مكة شرفها الله تعالى، وكان أمير مكة قاسم بن أبي فليته بن قاسم بن أبي هاشم العلوي، فلما وصل أمير الحاج إلى مكة

رتب عوض قاسم عمه عيسى بن قاسم بن أبي هاشم فبقي كذلك إلى شهر رمضان، ثم إن قاسم بن أبي فليته جمع العرب وقصد عمه عيسى، فلما قارب مكة رحل عنها عيسى وعاد قاسم إلى ملكها، ولم يكن معه ما يرضي به العرب، فكاتبوا عمه عيسى وصاروا معه، وقدم عيسى إليهم وهرب قاسم وصعد إلى جبل أبي قبيس، فسقط عن فرسه فأخذه أصحاب عمه عيسى وقتلوه، فغسله عيسى ودفنه بالمعلى عند أبيه أبي فليته، واستقرت مكة لعيسى.

وفيها عبر عبد المؤمن بن علي المجاز إلى الأندلس، وبنى على جبل طارق من الأندلس مدينة حصينة، وأقام بها ستة أشهر، وعاد إلى مراكش.

وفيها ملك قرا أرسلان صاحب حصن كيفا قلعة سابان، وكانت لطائفة من الأكراد، ولما ملكها خربها وأضاف أعمالها إلى حصن طالب.

وفي سنة سبع وخمسين

نازل نور الدين محمود بن زنكي قلعة حارم وهي للفرنج مدة، ثم رحل عنها ولم يملكها.

وفيها سارت الكرج في جمع عظيم ودخلوا بلاد الإسلام، وملكوا مدينة دوين من أعمال أذربيجان ونهبوها، ثم جمع ألدكز صاحب أذربيجان جمعاً وغزا الكرج وانتصر عليهم وقتل منهم مقتلة عظيمة.

وفيها حج الناس فوقع فتنة وقتال بين صاحب مكة وأمير الحاج، فرحل الحجاج ولم يقدر بعضهم على الطواف بعد الوقوف، قال ابن الأثير: وكان ممن حج ولم يطف جدته أم أبيه، فوصلت إلى بلادها وهي على احرامها إلى قابل، فاستفتت الشيخ أبا القاسم بن البرزي، فأفتى أنها إذا ما دامت على إحرامها إلى قابل وطافت حمل حجها الأول ثم تفدي

وتحل ثم تحرم احراماً ثانياً وتقف بعرفات وتعمل مناسك الحج فيصير لها حجة ثانية فبقيت على احرامها إلى قابل وفعلت كما قال، فتم حجها الأول والثاني. وفيها مات الكيا الضياء الصنهاجي[٦] صاحب ألموت مقدم الاسماعيلية، وقام ابنه مقامه فأظهر التوبة.

وفي سنة ثمان وخمسين

في صفر وزر شاور للعاضد لدين الله العلوي، وكان شاور يخدم الصالح طلائع بن رزيك ، فولاه الصعيد وكانت الصعيد أكبر المناصب بعد الوزارة، ولما جرح الصالح أوصى ولده العادل أن لايغير على شاور شيئاً لعلمه بقوة شاور، فلما تولى العادل بن الصالح الوزارة كتب إلى شاور بالعزل، فجمع شاور جموعه وسار نحو العادل إلى القاهرة، فهرب العادل فطرد شاور وراءه وأمسكه وقتله وانقضت بمقتله دولة بني رزيك، واستقر شاور في الوزارة ، وتلقب أمير الجيوش، وأخذ أموال بني رزيك وودائعهم، ثم إن أبا الأشبال ضرغام جمع جمعاً، ونازع شاور في الوزارة في شهر رمضان وقوي على شاور ، فانهزم شاور إلى الشام مستنجداً بنور الدين.

ولما تمكن ضرغام من الوزارة قتل كثيراً من الأمراء المصريين لتخلو له البلاد، فضعفت الدولة لهذا السبب حتى خرجت البلاد من أيديهم.

وفيها في العشرين من جمادى الآخر توفي عبد المؤمن بن علي صاحب بلاد المغرب ، وإفريقية، والأندلس، وكان قد سار من مراكش إلى سلا فمرض بها ومات ، ولما حضره الموت جمع جيوش الموحدين وقال لهم : قد جربت ابني محمداً فلم أجده يصلح لهذا الأمر، وإنما يصلح له ابني يوسف فقدموه وبايعوه ودعي بأمير المؤمنين، فاستقرت قواعد ملكه ، وكانت مدة ولاية عبد المؤمن ثلاثاً وثلاثين سنة وشهوراً، وكان حازماً

سديد الرأي حسن السياسة للأمور ، كثير سفك الدم على الذنب الصغير، وكان يعظم أمر الدين ويقويه ويلزم الناس بالصلاة بحيث أنه من رُئي في وقت الصلاة غير مصل قتل، وجمع الناس في المغرب على مذهب الإمام مالك رضي الله عنه في الفروع، وعلى مذهب أبي الحسن الأشعري في الأصول.

وفيها ملك آي آبه السنجري قومس، ولما ملكها ارسل إليه السلطان أرسلان بن طغريل بن محمد بن ملكشاه خلع وألوية وهدية جليلة، فلبس المؤيد الخلعة وخطب له في بلاده.

وفيها كبس الفرنج نور الدين محمود وهو نازل بعسكره في البقيعة تحت حصن الأكراد فلم يشعر نور الدين إلاّ وقد اطلت عليهم صلبان الفرنج، وقصدوا خيمة نور الدين فلسرعة ذلك ركب نور الدين فرساً وفي رجله الشبحة، فنزل كردي وقطعها فنجا نور الدين وقتل الكردي، فأحسن نور الدين إلى مخلفيه، ووقف عليهم الوقوف وسار نور الدين إلى بحيرة حمص فنزل عليها ، وتلاحق به من سلم من المسلمين.

وفيها أمر المستنجد بإجلاء بني أسد وهم أهل الحلة الزيدية، فقتل منهم جماعة وهرب الباقون وتشتتوا في البلاد وذلك لفسادهم في البلاد وسلمت بطائحهم وبلادهم إلى رجل يقال له ابن معروف.

وفي سنة تسع وخمسين

سير نور الدين محمود بن زنكي عسكراً مقدمهم أسد الدين شيركوه ابن شاذي إلى الديار المصرية ومعهم شاور، وكان قد سار من مصر هارباً من ضرغام الوزير، فلحق شاور بنور الدين واستنجده، وبذل له ثلث أموال مصر بعد رزق جندها إن أعاده إلى الوزارة، فوصل شيركوه إلى مصر، وهزم عسكر ضرغام عند قبر السيدة نفيسة، وأعاد شاوراً إلى

وزارته، وكان مسير أسد الدين في جمادى الأولى هذه السنة، واستقر شاور في الوزارة ، وخرجت إليه الخلع في مستهل رجب من هذه السنة، ثم غدر شاور بنور الدين، ولم يف له بشيء مما شرط فسار أسد الدين واستولى على بلبيس والشرقية، فأرسل شاور يستنجد بالفرنج ليخرجوا أسد الدين شيركوه من البلاد ، فسار الفرنج واجتمع معهم شاور بعسكر مصر وحصروا شيركوه ببلبيس ودام الحصار ثلاثة أشهر ، وبلغ الفرنج حركة نور الدين وأخذه حارم، فراسلوا شيركوه في الصلح،وفتحوا له فخرج من بلبيس بمن معه من العسكر، ووصلوا إلى الشام سالمين.

وفيها في شهر رمضان فتح نور الدين محمود قلعة حارم وأخذها من الفرنج بعد مصاف جرى بينه وبين الفرنج، فانتصر نور الدين ، وقتل وأسر من الفرنج عالماً كثيراً، وكان في جملة الأسرى البرنس صاحب انطاكية والقومص صاحب طرابلس، وغنم منهم المسلمو ن شيئاً كثيراً.

وفيها في ذي الحجة سار نور الدين وفتح بانياس، وكانت بيد الفرنج من سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة إلى هذه السنة.

وفيها توفي جمال الدين أبو جعفر محمد بن علي بن أبي منصور الأصفهاني وزير قطب الدين مودود بن زنكي،صاحب الموصل في شعبان مقبوضا عليه، وكان قد قبض عليه قطب الدين في سنة ثمان وخمسين، وكان قد تعاهد جمال الدين المذكور وأسد الدين شيركوه أنه من مات منهما قبل الآخر ينقله الآخر إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم فيدفنه بها، فنقله شيركوه ، وقد ذكرنا طرفاً من أخباره مع الوزراء.

وفي سنة ستين وخمسمائة

في ربيع الأول توفي بمازندران شاه رستم بن علي بن شهريار بن قارن، وملك بعده ابنه علاء الدين الحسن، وفيها ملك المؤيد آي آبه مدينة

هراة، وفيها كان بين قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان صاحب قونية وما جاورها من بلاد الروم وبين ياغي سيان صاحب ملطية وما يجاورها حروب شديدة وانهزم فيها قليج أرسلان فاتفق موت ياغي سيان صاحب ملطية في تلك المدة، وملك بعده ابن أخيه ابراهيم بن محمد بن الدانشمند، واستولى ذي النو ن محمد بن الدانشمند على قيسارية وملك شاهنشاه بن مسعود أخو قليج أرسلان مدينة أنكورية، واصطلح المذكورون على ذلك، واستقرت بينهم القواعد واتفقوا.

وفيها توفي الوزير عون الدين يحيى بن هبيرة في جمادى الأولى.

سنة إحدى وستين إلى سبعين وخمسمائة

في سنة إحدى وستين

فتح نور الدين محمود حصن المنيطرة من الشام، وكانت بيد الفرنج.

وفي سنة اثنتين

عاد أسد الدين شيركوه إلى الديار المصرية، جهزه نور الدين بألفي فارس، فوصل إلى ديار مصر واستولى على الجيزة، وأرسل شاور إلى الفرنج واستنجدهم وجمعهم ، وساروا في إثر شيركوه إلى جهة الصعيد واجتمع عسكر مصر والفرنج، وحصروا الناصر صلاح الدين يوسف بالاسكندرية مدة ثلاثة شهور، فسار شيركوه إليهم والتقوا بموضع يقال له البابين، فانهزم الفرنج والمصريون، واستولى شيركوه على بلاد الجيزة واستغلها، ثم سار إلى الاسكندرية وملكها، ثم جعل فيها ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب وعاد شيركوه إلى جهة الصعيد.

واجتمع عسكر مصر والفرنج ، وحصروا صلاح الدين بالاسكندرية

مدة ثلاثة شهور، فسار شيركوه إليهم فاتفقوا على الصلح على مال يحملوه إلى شيركوه ، ويسلم إليهم الاسكندرية ، ويعود إلى الشام، وتسلم المصريون الاسكندرية في منتصف شوال من هذه السنة، وسار شيركوه إلى الشام، فوصل دمشق ثامن عشر ذي القعدة، واستقر الصلح بين الفرنج والمصريين على أن يكون للفرنج في القاهرة شحنة، وتكون أبوابها بيد فرسانهم، ويكون لهم من دخل مصر كل سنة مائة ألف دينار.

وفيها فتح نور الدين صافيتا والعريمة، وفيها عصى غازي بن حسان صاحب منبج على نور الدين بمنبج ، فجهز إليه نور الدين عسكراً أخذوا منه منبج، ثم أقطعها نور الدين لقطب الدين ينال بن حسان أخا غازي المذكور، فبقي فيها إلى أن أخذها منه صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة اثنتين وتسعين.

وفيها توفي فخر الدين قرا أرسلان بن داود بن سقمان بن أرتق صاحب حصن كيفا، وملك بعده نور الدين محمد.

وفي سنة ثلاث وستين

فارق زين الدين كوجك بن بكتكين نائب قطب الدين مودود بن زنكي صاحب الموصل خدمة قطب الدين واستقر بإربل، وكانت في أقطاعه، وكانت له إربل مع غيرها فقنع بها وسكنها وسلم ما كان بيده من البلاد إلى قطب الدين، وكان زين الدين قد عمي وطرش.

وفي سنة أربع وستين

ملك نورالدين محمود قلعة جعبر، وأخذها من شهاب الدين مالك ابن علي بن مالك بن سالم بن مالك بن بدران العقيلي، وكانت بأيديهم من أيام السلطان ملكشاه، ولم يقدر نور الدين على أخذها إلا بعد أن

أسر صاحبها المذكور، بنو كلاب وأحضروه إلى نور الدين ، فاجتهد به على تسليمها، فلم يفعل ، فأرسل عسكراً تقدمهم فخر الدين مسعود ابن علي الزعفراني وردفه بعسكر آخر مع مجد الدين أبي بكر بن الداية، وكان رضيع نور الدين وحصروا قلعة جعبر، فلم يظفروا منها بشيء ولم يزالوا على صاحبها مالك حتى سلمها وأخذ عوضها مدينة سروج بأعمالها والملاحة من بلد حلب، وعشرين ألف دينار معجلة وباب بزاعة.

وفيها في ربيع الأول سار أسد الدين شيركوه بن شاذي إلى ديار مصر، ومعه العساكر النورية، وسبب ذلك تمكن الفرنج من الديار المصرية، وتحكمهم على المسلمين بها، حتى ملكوا بلبيس قهراً في مستهل صفر هذه السنة، وقتلوا كل من فيها، ثم ساروا من بلبيس ونزلوا على القاهرة عاشر صفر وحاصروها، وأحرق شاور مدينة مصر خوفاً من أن يملكها الفرنج، وأمر أهلها ونقلهم إلى القاهرة فبقيت النار تعمل أربع وخمسين يوماً، فارسل العاضد الخليفة إلى نور الدين يستغيث به، وأرسل في الكتب شعور النساء وصانع شاور الفرنج على ألف ألف دينار يحملها إليهم، فحمل إليهم مائة ألف دينار، وسألهم أن يرحلوا عن القاهرة ليقدر على جمع المال، فرحلوا وجهز نور الدين العسكر مع شيركوه وانفق فيهم المال،وأعطى شيركوه مائتي ألف دينار سوى الخيل والدواب والأسلحة، وأرسل معه عدة أمراء منهم ابن أخيه صلاح الدين يوسف ابن أيوب على كره منه، أحب نور الدين مسير صلاح الدين ، وفيه ذهاب الملك من بيته، وكره صلاح الدين المسير وفيه سعادته(وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خيراً لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم(٧)) ولما قرب شيركوه من مصر رحل الفرنج على أعقابهم إلى بلادهم، وكان هذا لمصر فتحاً جديداً، ووصل أسد الدين شيركوه إلى القاهرة في رابع ربيع الآخر، واجتمع بالعاضد وخلع عليه وعاد إلى خيامه بالخلعة العاضدية، وأجرى عليه وعلى عسكره الإقامات الوافرة ، وشرع شاور يماطل شيركوه فيما بذله لنور الدين من تقرير المال و إفراد ثلث البلاد له ، ومع ذلك

شاور يركب كل يوم إلى أسد الدين شيركوه ويعده ويمنيه (وما يعدهم الشيطان إلا غروراً [٨])ثم إن شاور عزم على أن يعمل دعوة لشيركوه وأمرائه ويقبض عليهم فمنعه ابنه الكامل بن شاور من ذلك ، ولما رأى عسكر نور الدين من شاور ذلك عزموا على قتله، واتفق على ذلك صلاح الدين يوسف وعز الدين جرديك وغيرهما، وعرفوا شيركوه بذلك فنهاهم عنه، واتفق أن شاور قصد شيركوه على عادته، فلم يجده في المخيم ، وكان قد مضى لزيارة قبر الامام الشافعي رضي الله عنه، فلقي صلاح الدين وجرديك شاوراً واعلماه برواح شيركوه إلى الزيارة، فساروا جميعا إلى شيركوه فوثب صلاح الدين وجرديك على شاور ورموه عن فرسه إلى الأرض وأمسكوه في سابع ربيع الآخر هذه السنة ، فهرب أصحابه عنه وأرسلوا أعلموا شيركوه بما فعلوه فحضر ولم يمكنه تخليصه، وسمع العاضد بذلك فأرسل إلى شيركوه يطلب منه إنفاذ رأس شاور فقتله، وأنفذ رأسه إلى العاضد، ودخل عند ذلك شيركوه إلى قصر العاضد فخلع عليه للوزارة، ولقبه الملك المنصور أمير الجيوش، وسار بالخلع إلى دار الوزارة وهي التي كان فيها شاور، واستقر في الأمر ، وكتب له منشور بالإنشاء الفاضلي، وكتب له بعد البسلمة: « من عبد الله ووليه الإمام العاضد لدين الله أمير المؤمنين إلى السيد الأجل الملك المنصور سلطان الجيوش ولي الأئمة مجير الأمة أبي الحارث شيركوه العاضدي، عضد الله به الدين وامتع بطوله أمير المؤمنين وأدام قدرته وإعلاء كلمته سلام عليك، فإنا نحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ونسأله أن يصلي على محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين وعلى آله الطاهرين والأئمة المهديين وسلم تسليماً». ثم ذكر تفويض الخلافة إليه ووصايا ، وكتب العاضد بخطه على طرة المنشور « هذا عهد لم يعهد لوزير بمثله فتقلد أمانة رآك أمير المؤمنين أهلاً لحملها، وخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة واسحب ذيل الفخار بأن اعتزت خدمتك ببنوة النبوة». ومدحت الشعراء أسد الدين، ووصل إليه من الشام مديح العماد

الكاتب قصيدة أولها:

بالجد أدركت ما أدركت لا اللعب
كم راحة جنيت من دوحة التعب
يا شيركوه بن شاذي الملك دعوة من
نادى فعرّف خير ابن بخير أب
جرى الملوك وما حازوا بركضهم
من المدى في العي ما حزت بالخبب
تمل من ملك مصر رتبة قصرت
عنها الملوك فطالت سائر الرتب
قد أمكنت أسد الدين الفريسة من
فتح البلاد فبادر نحوها وثب

وفي شيركوه وقتل شيركوه يقول عرقلة الدمشقي:

لقد فاز بالملك العقيم خليفة
له شيركوه العاضدي وزير
هو الأسد الضاري الذي جل خطبه
وشاور كلب للرجال عقور
بغى وطغى حتى لقد قال صحبه
على مثلها كان اللعين يدور
فلا رحم الرحمن تربة قبره
ولازال عنها منكر ونكير (٩)

وأما الكامل بن شاور فإنه لما قتل أبوه دخل القصر، وكان آخر العهد به، ولما لم يبق لأسد الدين شيركوه منازع أتاه أجله (حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة(١٠)) فتوفي يوم السبت الثاني والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة، وكانت ولايته شهرين وخمسة أيام، وكان شيركوه وأيوب ابني شاذي من بلددوين.

قال ابن الأثير: وأصلهما من الأكراد الروادية فقصدا العراق وخد ما

بهروز شحنة السلجوقية ببغداد، وكان أيوب أكبر من شيركوه فجعله بهروز مستحفظاً قلعة تكريت، ولما انكسر عماد الدين زنكي من عسكر الخليفة ومر على تكريت خدمه أيوب وشيركوه ، ثم إن شيركوه قتل إنساناً بتكريت فأخرجهما بهروز من تكريت فلحقا بخدمة عماد الدين زنكي، فأحسن إليهما وأعطاهما اقطاعات جليلة ، ولما ملك عماد الدين قلعة بعلبك جعل أيوب مستحفظاً عليها، فلما حاصره عسكر دمشق بعد موت زنكي سلمها أيوب إليهم على إقطاع كبير، وبقي أيوب من أكبر أمراء عسكر دمشق، وبقي شيركوه مع نور الدين محمود بعد قتل أبيه زنكي، وأقطعه نور الدين حمص والرحبة، لما رأى من شجاعته وزاده عليهما، وجعله مقدم عسكره، فلما أراد نور الدين ملك دمشق أمر شيركوه فكاتب أخاه أيوب فساعد نور الدين على فتح دمشق وبقيا معه إلى أن أرسل شيركوه إلى مصر مرة بعد أخرى حتى ملكها، وتوفي في هذه السنة على ما ذكرناه، ولما توفي شيركوه كان معه صلاح الدين يوسف ابن أخيه أيوب، وكان قد سار معه على كره، قال صلاح الدين: أمرني نور الدين بالمسير مع عمي شيركوه، وكان قد قال شيركوه بحضرته لي: تجهز يا يوسف للمسير، فقلت: والله لو أعطيت ملك مصر ما سرت إليها، فلقد قاسيت بالاسكندرية مالا أنساه أبداً، فقال لنور الدين: لابد من مسيره معي، فأمرني نور الدين وأنا أستقيل، فقال نور الدين: لابد من مسيرك مع عمك، فشكوت الضائقة، فأعطاني ما تجهزت به كأنما أساق إلى الموت.

ولما مات شيركوه طلب جماعة من الأمراء النورية التقدم على العسكر، وولايةالوزارة العاضدية منهم عين الدولة الياروقي، وقطب الدين ينال المنبجي، وسيف الدين علي بن أحمد المشطوب الهكاري، وشهاب الدين محمود الحارمي خال صلاح الدين، فأرسل العاضد طلب صلاح الدين وولاه الوزارة ، ولقبه الملك الناصر ، فلم يطعه الأمراء المذكورون، وكان مع صلاح الدين الفقيه عيسى الهكاري،فسعى مع المشطوب حتى أماله

إلى صلاح الدين ثم قصد الحارمي، وقال: هذا ابن أختك وعزه وملكه لك، فمال إليه أيضاً، ثم فعل بالباقين كذلك، فكلهم أطاع غير عين الدولة الياروقي فإنه قال: أنا لا أخدم يوسف ، وعاد إلى نور الدين بالشام، وثبتت قدم صلاح الدين على أنه نائب لنور الدين وكان نور الدين يكاتبه بالأمير الاسفهسلار، ويكتب علامته على رأس الكتاب تعظيماً أن يكتب اسمه، وكان لايفرده بكتاب بل الأمير صلاح الدين وكافة الأمراء بالديار المصرية يفعلون كذا وكذا، ثم أرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين أباه أيوب وأهله فأرسلهم نور الدين إليه، فأعطاهم الإقطاعات بمصر وتمكن من البلاد وضعف أمر العاضد، ولما فوض الأمر إلى صلاح الدين تاب عن شرب الخمر ، وأعرض عن أسباب اللهو، وتقمص لباس الجد ودام على ذلك إلى أن توفاه الله عز وجل.

قال ابن الأثير في الكامل: رأيت أكثر ما يقع ممن ابتدى الملك تنتقل الدولة منه إلى غير عقبه، فإن معاوية تغلب وملك فانتقل الملك إلى بني مروان بعده، ثم ملك السفاح من بني العباس فانتقل الملك إلى بني أخيه المنصور، ثم السامانية أول من استبد بالملك منهم نصر بن أحمد فانتقل الملك إلى عقب أخيه اسماعيل ، ثم عماد الدولة ابن بويه ملك فانتقل الملك إلى بني أخيه ركن الدولة، ثم ملك طغرلبك السلجوقي فانتقل الملك إلى بني أخيه جغري، ثم شيركوه ملك، فانتقل الملك إلى ابن أخيه صلاح الدين ، ولما قام صلاح الدين بالملك لم يبق الملك في عقبه بل انتقل إلى بني العادل أبي بكر ، ولم يبق لأولاد صلاح الدين غير حلب وكان سبب ذلك كثرة قتل من يتولى أولاً، وأخذه الملك وعيون أصحابه فيه، فيحرم على عقبه ذلك.

ولما استقر قدم صلاح الدين في الوزارة قتل مؤتمن الخلافة، وهو مقدم السودان، فاجتمعت السودان وهم حفاظ القصر في عدد كبير، وجرى

بينهم وبين صلاح الدين وعسكره وقعة عظيمة بين القصرين ، فانهزم السودان ، وقتل منهم خلق كثير، وتبعهم صلاح الدين فأجلاهم قتلاً وتهجيجاً، وحكم صلاح الدين على القصر ، وأقام فيه بهاء الدين قراقوش الأسدي وكان خصياً أبيض، وبقي لايجري في القصر صغيرة ولا كبيرة إلا بأمر صلاح الدين

وفيها كان بين اينانج السنجري صاحب الري وبين ألدكز حرب انتصر فيها ألدكز، وملك الري وهرب اينانج وانحصر في بعض القلاع، فبعث ألدكز ورغب غلمان اينانج في الإقطاعات إن قتلوا اينانج فقتلوه، ولحقوا بألدكز، فقال: مثل هؤلاء لاينبغي الإ بقاء عليهم فهربوا إلى البلاد ولحقوا بخوارزم شاه، فصلب الذي تولى منهم قتل اينانج الحاجب استاذه، وفيها توفي ياروق أرسلان التركماني، وكان مقدماً كبيراً وإليه تنسب الطائفة الياروقية من التركمان ، وكان عظيم الخلقة، سكن بظاهر حلب، وبنى على شاطىء قويق هو واتباعه عمائر كثيرة ، وتعرف الآن باليباروقية مشهورة هناك.

وفي سنة خمس وستين

سارت الفرنج إلى دمياط وحصروها وشحنها صلاح الدين بالرجال والسلاح والذخائر، وأخرج على ذلك أموالاً عظيمة، فحصروها خمسين يوماً، وخرج نور الدين فأغار على بلادهم بالشام ، فرحلوا عائدين على أعقابهم، ولم يظفروا بشيء منها، قال صلاح الدين : مارأيت أكرم من العاضد أرسل إلي مده مقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار مصرية ، سوى الدواب وغيرها.

وفيها سار نور الدين وحاصر الكرك مدة، ثم رحل عنه.

وفيها كانت زلزلة عظيمة خربت الشام فقام نور الدين في عمارة

الأسوار، وحفظ البلاد أتم قيام، وكذلك خربت بلاد الفرنج فخافوا من نور الدين واشتغل كل منهم بعمارة ما يليه من بلاده عن قصد بلاد غيره.

وفيها في ذي الحجة مات قطب الدين مودود بن زنكي بن آقسنقر صاحب الموصل، وكان مرضه حمى حادة، ولما مات صرف أرباب الدولة الملك عن ابنه الأكبر عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي إلى أخيه الذي هو أصغر منه سيف الدين غازي بن مودود، فسار عماد الدين زنكي إلى عمه نور الدين مستنصراً به، وتوفي قطب الدين وعمره أربعون سنة، وكانت مدة ملكه إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر ونصف، وكان من أحسن الملوك سيرة.

وفيها توفي الملك طغر لبك بن قاورت بيك صاحب كرمان، واختلف أولاده: بهرام شاه، وأرسلان شاه وهو الأكبر، واستنجد كل منهما وطلب الملك، فاتفق موت أرسلان شاه في تلك المدة، فاستقر بهرام شاه في ملك كرمان.

وفيها توفي مجد الدين أبو بكر ابن الداية رضيع نور الدين، وكانت حلب وحارم وقلعة جعبر اقطاعه فأقر نور الدين أخاه علياً على إقطاعه.

وفي سنة ست وستين

في تاسع ربيع الآخر توفي الخليفة المستنجد أبو المظفر يوسف بن المقتفي، وكان سبب موته أنه مرض واشتد مرضه وكان قد خاف منه استاذ داره عضد الدين أبو الفرج بن ابن رئيس الرؤساء وقطب الدين قيماز الصفوي، وهو حينئذ أكبر أمراء بغداد، فاتفقا ووضعا للطبيب على أن يصف له ما يهلكه ، فوصف له دخول الحمام فامتنع منه لضعفه، ثم إنه دخلها وغلق عليه الباب فمات، فلما مات أحضر عضد الدين وقطب الدين:

المستضيء بالله أبو محمد الحسن بن المستنجد بالله ثالث ثلاثين خلفاء بني العباس رحمهم الله

وشرطا عليه شروطاً أن يكون عضد الدين وزيراً وابنه كمال الدين استاذ دار، وقطب الدين أمير العسكر، فأجابهم إلى ذلك، ولم يل الخلافة من اسمه الحسن غيره وغير الحسن بن علي رضي الله عنهما ،وبايعوا المستضيء بالله بالخلافة يوم موت أبيه بيعة خاصة، وفي غده بيعة عامة.

وفيها سار نور الدين محمود بن زنكي إلى الموصل، وهي بيد ابن أخيه غازي بن مودود، فاستولى عليها نور الدين وملكها، فلما ملكها اطلق المكوس منها، وقرر أمورها، ثم وهبها لابن أخيه غازي المذكور، وأعطى سنجار لعماد الدين زنكي بن مودود وهو أكبر من أخيه سيف الدين غازي فقال كمال الدين الشهرزوري :هذا طريق إلى أذى يحصل للبيت الأتابكي، لأن عماد الدين كبير لايرى طاعة أخيه غازي وهو صغير، وسيف الدين غازي هو الملك لايرى الأغضاء، فيحصل الخلف، ويطمع الأعداء.

وفيها سار صلاح الدين عن مصر فغزا الفرنج قرب عسقلان والرملة وعاد إلى مصر، ثم رجع إلى أيله وحصرها وهي للفرنج على ساحل البحر الشرقي، ونقل إليها المراكب وحصرها براً وبحراً وفتحها في العشر الأول من ربيع الأول ، واستباح أهلها وما فيها ، وعاد إلى مصر، ولما استقر بمصر كان بها دار للشحنة تسمى دار المعونة يحبس فيها ، فهدمها صلاح الدين وبناها مدرسة للشافعية، وكذلك بنى دار العزل مدرسة للشافعية، وعزل قضاة المصريين وكانوا سبعة، ورتب قضاة شافعية. وذلك في العشرين من جمادى الآخرة ، وكذلك اشترى تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين منازل العز، وبناها مدرسة للشافعية.

وفي سنة سبع وستين

ثاني جمعة من المحرم قطعت خطبة العاضد لدين الله أبي محمد عبد الله، وكان سبب الخطبة العباسية بمصر أنه لما تمكن صلاح الدين من مصر وحكم على القصر، وأقام فيه قراقوش الأسدي، وكان خصياً أبيض.

وبلغ نور الدين ذلك فأرسل إلى صلاح الدين يأمره بقطع الخطبة العلوية، وإقامة الخطبة العباسية، فراجعه صلاح الدين في ذلك خوف الفتنة فلم يلتفت نور الدين إلى ذلك، وأصر عليه ، وكان العاضد قد مرض، فأمر صلاح الدين الخطباء أن يخطبوا للمستضيء ويقطعوا خطبة العاضد، فامتثلوا ذلك ولم ينتطح فيها عنزان، وكان العاضد قد اشتد مرضه، فلم يعلمه أحد من أهله بقطع خطبته، فتوفي العاضد يوم عاشوراء، ولم يعلم بقطع خطبته، ولما توفي جلس صلاح الدين للعزاء، واستولى على قصر الخلافة وعلى جميع ما فيه وكانت كثرته تخرج عن الإحصاء ، وكان فيه أشياء نفيسة من الأعلاق الثمينة والكتب والتحف فمن ذلك الجبل الياقوت ، وكان وزنه سبع عشرة درهماً.

قال ابن الأثير في الكامل: أنا رأيته ووزنته، ومما حكي أنه كان بالقصر طبل للقولنج إذا ضرب به الإنسان ضرط، فكسر ولم يعلموا به إلا بعد ذلك، ونقل أهل العاضد إلى موضع من القصر ووكل بهم من يحفظهم، وأخرج جميع من فيه من عبد وأمه فباع البعض وعتق البعض، ووهب البعض، وخلا القصر من سكانه كأن لم يغن بالأمس، ولما اشتد مرض العاضد أرسل إلى صلاح الدين يستدعيه فظن ذلك خديعة، فلم يمض إليه، فلما توفي علم صدقه وندم على تخلفه عنه، وجميع مدة خلافتهم من حين ظهر المهدي بسجلماسة في ذي الحجة سنة ست وتسعين ومائتين إلى أن توفي العاضد في هذه السنة. سنة سبع وستين وخمسمائة :

مائتان واثنتان وسبعون سنة تقريباً، وهذا دأب الدنيا لم تعط إلا واستردت ولم تحل إلا وتمررت، ولم تصف إلا وتكدرت ، بل صفوها لايخلو من الكدر، ولما وصل خبر الخطبة العباسية بمصر إلى بغداد ضربت البشائر ستة أيام، وسيرت الخلع مع عماد الدين صندل، وهو من خواص الخدم المعتقون إلى نور الدين وصلاح الدين والخطباء، وسيرت الأعلام السود، وكان العاضد قد رأى مناماً أن عقرباً خرجت من مسجد بمصر معروف ذلك المسجد للعاضد ولرعيته فاستيقظ العاضد مرعوباً واستدعى بمن يعبر الرؤيا وقصه عليه فعبر له بوصول أذى إليه من شخص بذلك المسجد، فتقدم العاضد إلى والي مصر باحضار أهل ذلك المسجد فأحضر إليه شخصاً صوفياً يقال له نجم الدين الخبوشاني فاستخبره العاضد عن مقدمه ، وسبب مقامه بذلك المسجد، فأخبره بالصحيح في ذلك ، ورآه العاضد أضعف من أن يناله بمكروه فأمر له بمال وقال ادع لنا ياشيخ ، وأمره بالإنصراف، فلما أراد السلطان صلاح الدين إزالة الدولة العلوية استفتى الفقهاء وكان نجم الدين الخبوشاني المذكور من جملتهم فبالغ في الفتيا، وصرح بتعديد مساوئهم، وسلب عنهم الإيمان، وأطال الكلام في ذلك، فصحت به رؤيا العاضد.

وفيها وقع بين نور الدين وصلاح الدين وحشة في الباطن ، فإن صلاح الدين سار ونازل الشوبك، وهي للفرنج ثم رحل عنه خوفاً أن يأخذه، فلم يبق ما يعوق نور الدين عن قصد مصر، فتركه ولم يفتحه لذلك، وبلغ نور الدين ذلك فكتمه وتوحش خاطره لذلك، ولما استقر صلاح الدين بمصر جمع أقاربه وكبراء دولته وقال: بلغني أن نور الدين يقصدنا، فما الرأي؟ فقال تقي الدين عمر ابن أخيه: نقاتله ونصده وكان ذلك بحضرة أبيهم نجم الدين أيوب، فأنكر على تقي الدين ذلك،

وقال: أنا والدكم لو رأيت نور الدين لنزلت وقبلت الأرض بين يديه، بل أكتب وقل لنور الدين: لو جاءني إنسان واحد من عندك، وربط المنديل في عنقي وجرني إليك سارعت إليك، وانفضوا على ذلك، ثم اجتمع أيوب بابنه صلاح الدين خلوة، وقال: لو قصدنا نور الدين أنا كنت أول من يمنعه ويقاتله، ولكن إذا أظهرنا ذلك يترك نور الدين جميع ما هو فيه، ويقصدنا ولا ندري ما يكون من ذلك، فإن جميع عسكرنا انما هم أمراء نورالدين وغلمانه ، وإن أظهرنا الطاعة تمادى الوقت بما تحصل به الكفاية من عند الله تعالى، فكان كما قال.

وفيها توفي الأمير محمد بن مردنيش صاحب شرقي بلاد الأندلس، وهي : مرسيه وبلنسية وغيرهما،فقصد اولاده أبا يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ملك المغرب، وسلموا إليه بلادهم، فسر بذلك يوسف وتسلمها منهم، وتزوج أختهم وأكرمهم ووصلهم بالأموال الجزيلة، وكان قد قصدهم يوسف المذكور في مائة ألف مقاتل فأجابوا بدون قتال كما ذكرنا.

وفيها عبر الخطا نهر جيحون، فجمع خوارزم شاه أرسلان بن أطسز ابن محمد بن أنوشتكين عساكره وسار إلى لقائهم، فمرض ورجع مريضاً، وأرسل عسكراً مع بعض المقدمين فقاتلوا الخطا، فانهزم عسكر خوارزم شاه وأسر مقدمهم، ورجع الخطا إلى بلادهم بعد ذلك.

وفيها اتخذ نور الدين بالشام الحمام الهوادي، وتسمى المناسيب، لنقل البطائق والأخبار، وفيها عزل المستضيء وزيره عضد الدين ابن رئيس الرؤساء مكرهاً، لأن قطب الدين قيماز ألزمه بعزله، فلم يمكنه مخالفته.

سنة ثمان وستين

توفي خوارزم شاه أرسلان بن أطسز بن محمد بن أنوشتكين، وكان قد

عاد من قتال الخطا مريضاً، ولما مات ملك بعده ابنه الصغير سلطان شاه محمود، ودبرت والدته المملكة ، وكان ابنه الأكبر علاء الدين تكش مقيماً بجند قد أقطعه أبوه إياها، فلما بلغه موت أبيه وولاية أخيه الصغير أنف من ذلك، واستنجد بالخطا، وسار إلى أخيه الصغير سلطان شاه وطرده، ثم أن سلطان شاه قصد ملوك الأطراف واستنجدهم على أخيه تكش فطرده، وكانت الحرب بينهم سجالاً حتى مات سلطان شاه في سنة سبع وثمانين وخمسمائة واستقر تكش في ملك خوارزم وفي تلك الحروب بين الأخوين قتل المؤيد آي آبه السنجري قتله تكش صبراً وملك بعده ابنه طغان شاه بن المؤيد آي آبه.

وفيها سار شمس الدولة تورانشاه بن أيوب أخي صلاح الدين الأكبر من مصر إلى النوبة للتغلب عليها،فلم تعجبه تلك البلاد، فغنم وعاد إلى مصر.

وفيها توفي شمس الدين ألدكز بهمذان ، وملك بعده ابنه محمد البهلوان، ولم يختلف عليه أحد وكان ألدكز هذا مملوكاً للكمال السميري وزير السلطان محمود، ثم صار للسلطان محمود، فلما ولي مسعود ولاه وكبره حتى صار ملك أذربيجان وغيرها من بلاد الجبل، وأصبهان والري، وكان عسكره خمسين ألف فارس، وكان يخطب في بلاده بالسلطنة للسلطان أرسلان بن طغريل، ولم يكن لأرسلان معه حكم، وكان ألدكز حسن السيرة.

وفيها سارت طائفة من الترك من ديار مصر مع مملوك لتقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب اسمه قراقوش إلى إفريقية ونزلوا على طرابلس الغرب، فحاصرها مدة، ثم فتحها قراقوش واستولى عليها، وملك كثيراً من بلاد إفريقية.

وفيها غزا أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بلاد الفرنج من الاندلس.

وفيها سار نور الدين محمود بن زنكي إلى بلاد قليج أرسلان بن مسعود، واستولى على مرعش وبهسنا، ومرزبان، وسيواس، فأرسل إليه قليج أرسلان يستعطفه ويسأل الصلح، فقال نور الدين لا أرضى إلا أن يرد ملطيه على ذي النون بن الدانشمند وكان قليج أرسلان قد أخذها منه، فبذل له سيواس، واصطلح مع نور الدين، فلما مات نور الدين عاد قليج أرسلان، واستولى على سيواس، وطرد عنها ذا النون بن الدانشمند.

وفيها سار صلاح الدين من مصر إلى الكرك وحصرها ، وكان قد وعد نور الدين أن يجتمعا على الكرك، فخاف صلاح الدين من الاجتماع بنور الدين،وكان نور الدين قد وصل إلى الرقيم وهو بالقرب من الكرك، فرحل صلاح عن الكرك عائداً إلى مصر، وأرسل تحفاً إلى نور الدين واعتذر أن أباه مرض، وهو يخشى موته فتذهب مصر فقبل نور الدين عذره في الظاهر، وعلم المقصود في الباطن ولما وصل صلاح الدين إلى مصر وجد أباه نجم الدين أيوب بن شاذي قد مات ، وكان سبب موته أنه ركب بمصر فنفرت به فرسه، فوقع وحمل إلى قصره، فبقي أياماً ومات في السابع والعشرين من ذي الحجة من هذه السنة.

وفي سنة تسع وستين

ملك تورانشاه اليمن وكان صلاح الدين وأهله خائفين من نور الدين، فاتفق رأيهم على تحصيل مملكة غير مصر بحيث إن قصدهم نور الدين قاتلوه، فإن هزمهم التجأوا إلى تلك المملكة، فجهز صلاح الدين أخوه شمس الدولة تورانشاه بن أيوب إلى النوبة فلم تعجبه بلادها، ثم سيره في هذه السنة بعسكره إلى اليمن، وكان صاحب اليمن حينئذ عبد النبي المقدم ذكره في سنة أربع وخمسين وخمسمائة، فتجهز تورانشاه،

ووصل اليمن، وجرى بينه وبين عبد النبي قتال فانتصر توارنشاه، وهزم عبد النبي وهجم زبيد وملكها، وأسر عبد النبي، ثم قصد عدن وكان صاحبها اسمه ناشر، فخرج لقتال توارنشاه فهزمه توارنشاه وهجم عدن وملكها، وأسر ناشر واستولى توارنشاه على بلاد اليمن، واستقرت في ملك صلاح الدين، واستولى على أموال عظيمة من عبد النبي، وكذلك من عدن.

وفيها في رمضان صلب صلاح الدين جماعة من أعيان المصريين، فانهم قصدوا الوثوب عليه وإعادة الدولة العلوية، فعلم بهم وصلبهم عن آخرهم فمنهم عبد الصمد الكاتب والقاضي العويرس، وداعي الدعاة، وعمارة بن علي اليمني.

وفي هذه السنة توفي

الملك العادل نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي بن اق سنقر

صاحب الشام وديار الجزيرة وغير ذلك يوم الأربعاء حادي عشر شوال، بعلة الخوانيق بقلعة دمشق المحروسة، وكان نور الدين قد شرع بتجهيز الدخول إلى مصر وأخذها من صلاح الدين، وكان يريد أن يخلي ابن أخيه سيف الدين غازي بالشام، ويسير هو بنفسه إلى مصر فأتاه أمر الله الذي لايرد، وكان نور الدين أسمر طويل القامة، ليس له لحية إلا في حنكه، حسن الصورة وكان قد اتسع ملكه جداً، وخطب له بالحرمين واليمن لما ملكها توارنشاه بن أيوب، وكذلك كان يخطب له بمصر، وكان مولد نور الدين سنة إحدى عشرة وخمسمائة، وطبق الأرض ذكره بحسن السيرة والعدل، وكان من الزهد والعبادة على قدر عظيم، وكان يصلي غالب الليل كما قيل:

جمع الشجـــاعـــة والخشـــوع لـــربـــه
مـــا أحســـن المحـــراب في المحـــراب

وكان عارفاً بالفقه على مذهب أبي حنيفة ، وليس عنده فيه تعصب، وهو الذي بنى أسوار مدن الشام مثل : دمشق، وحماه، وحمص، وشيزر، وبعلبك، وغيرها لما تهدمت بالزلازل، وبنى المدارس الكثيرة الحنفية والشافعية، ولايحتمل هذا المختصر ذكر فضائله.

ولما توفي نور الدين قام ابنه الملك الصالح اسماعيل بالملك بعده، وعمره إحدى عشرة سنة ، وحلف له العسكر بدمشق وأقام بها وأطاعه صلاح الدين بمصر، وخطب له بها وضربت له السكة، وكان المتولي لتدبير دولته الأمير شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدم ، ولما مات نور الدين وتولى ولده الملك الصالح سار سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود صاحب الموصل، وملك جميع البلاد الجزرية.

وفي سنة سبعين

في أولها اجتمع على رجل من أهل الصعيد يقال له الكنز جمع عظيم، وأظهر الخلاف على صلاح الدين، فأرسل إليه صلاح الدين عسكراً فقتل الكنز وجماعة معه، وانهزم الباقون.

وفي سلخ ربيع الأول ملك صلاح يوسف بن أيوب مدينة دمشق، وحمص، وحماه، وسببه أن شمس الدين ابن الداية المقيم بحلب أرسل سعد الدين كمشتكين يستدعي الملك الصالح بن نور الدين من دمشق إلى حلب ليكون مقامه بها، فسار الملك الصالح مع سعد الدين إلى حلب، ولما استقر بحلب تمكن كمشتكين وقبض على شمس الدين ابن الداية وأخوته، وقبض على الرئيس ابن الخشاب وأخوته، وهو رئيس

حلب، واستبد سعد الدين كمشتكين بتدبير الملك الصالح فخافه ابن المقدم وغيره من أمراء دمشق، وكاتبوا صلاح الدين بن أيوب صاحب مصر، واستدعوه ليملكوه عليهم فسار صلاح الدين جريدة في سبعمائة فارس، ولم يلبث فوصل إلى دمشق وخرج كل من بها من العسكر والتقوه وخدموه، ونزل بدار والده أيوب المعروفة بدار العقيقي، وعصت عليه القلعة ، وكان فيها من جهة الملك الصالح خادم اسمه ريحان ، فراسله صلاح الدين واستمالة فسلم القلعة إليه فصعد إليها صلاح الدين وأخذ ما فيها من الأموال، ولما ثبت قدمه في دمشق استخلف بها أخاه سيف الإسلام طغتكين بن أيوب وسار إلى حمص مستهل جمادى الأولى، وكانت حمص وحماه وقلعة بارين وسلمية وتل خالد والرها من بلد الجزيرة في اقطاع فخر الدين مسعود بن الزعفراني، فلما مات نور الدين لم يمكن فخر الدين مسعود المقام بحمص وحماه لسوء تدبيره مع الناس، وكانت هذه البلاد له بغير قلاعها فإن قلاعها كان فيها ولاة لنور الدين، وليس لفخر الدين معهم في القلاع حكم إلا بارين، فإن قلعتها كانت له أيضاً فنزل صلاح الدين على حمص في حادي عشر جمادى الأولى، وملك المدينة، وعصيت عليه القلعة ، فترك عليها من يضيق عليها، ورحل إلى حماه فملك مدينتها مستهل جمادى الآخرة من السنة، وكان بقلعتها الأمير عز الدين جرديك أحد المماليك النورية، فامتنع في القلعة فذكر له صلاح الدين أنه ليس له غرض سوى حفظ بلاد الملك الصالح عليه وإنما هو نائبه، وقصد من جرديك المسير إلى حلب في رسالة فاستحلفه جرديك على ذلك وسار جرديك إلى حلب برسالة من صلاح الدين واستخلف في قلعة حماه أخاه، فلما وصل جرديك إلى حلب قبض عليه كمشتكين وسجنه، فلما علم أخوه بذلك سلم قلعة حماة إلى صلاح الدين فملكها، ثم سار صلاح الدين إلى حلب وحصرها، وبها الملك الصالح بن نور الدين، فجمع أهل حلب وقاتلوا صلاح الدين وصدوه عن حلب ، وأرسل سعد الدين كمشتكين إلى سنان مقدم الإسماعيلية

أموالاً عظيمةليقتلوا صلاح الدين ، فأرسل سنان جماعة ليقتلوا صلاح الدين ، ووثبوا على صلاح الدين فقتلوا دونه، واستمر صلاح الدين محاصراً لحلب إلى مستهل رجب،ورحل عنها بسبب نزول الفرنج على حمص، ووصل صلاح الدين حماه ثامن رجب وسار إلى حمص فرحل الفرنج عنها، ووصل صلاح الدين إلى حمص وحاصر قلعتها وملكها في حادي عشر من شعبان، ثم أرسل إلى بعلبك فملكها، ولما استقر ملك صلاح الدين لهذه البلاد أرسل الملك الصالح إلى ابن عمه سيف الدين غازي يستنجده على صلاح الدين، فجهز جيشه صحبة أخيه مسعود بن مودود بن زنكي، ومقدم الجيش عز الدين محمود المعروف بسلفندار، وطلب أخاه الأكبر عماد الدين زنكي بن مودود يسير في الصحبة فامتنع مصانعة لصلاح الدين، فسار سيف الدين غازي وحصره بسنجار، ووصل عسكر الموصل صحبة عز الدين مسعود بن مودود وسلفندار إلى حلب وانضم إليهم عسكر حلب، وساروا إلى صلاح الدين فأرسل صلاح الدين يبذل حمص وحماة، وأن يفرد بيده دمشق ويكون فيها نائباً للملك الصالح، فلم يجيبوه إلى ذلك وساروا لقتاله، واقتتلوا عند قرون حماه، فانهز م عسكر الموصل وحلب ، وغنم صلاح الدين، وعسكره أموالهم وتبعهم صلاح الدين حتى حصرهم بحلب، وقطع صلاح الدين حينئذ خطبة الصالح بن نور الدين، وأزال اسمه عن السكة ، واستبد بالسلطنة، فراسلوا صلاح الدين في الصلح على أن يكون له ما بيده من الشام، ويكون للملك الصالح ما بقي بيده منه فصالحهم على ذلك، ورحل عن حلب في العشر الأول من شوال هذه السنة أعني سنة سبعين وخمسمائة وفي العشر الآخر من شوال ملك السلطان صلاح الدين باريين، وأخذها من صاحبها فخر الدين مسعود بن الزعفراني، وكان فخر الدين من أكابر الأمراء النورية.

وفيها ملك البهلوان بن ألدكز مدينة تبريز وأخذها من ابن آق سنقر الآحمديلي.

وفيها مات شملة التركماني صاحب خوزستان وتولى ولده.

وفيها وقع بين الخليفة وبين قطب الدين قيماز مقدم عسكر الخليفة ببغداد فتنة، فنهبت دار قيماز، وهرب إلى الحلة، ثم إلى الموصل فلحقه في الطريق عطش شديد، وهلك أكثر أصحابه ومات هو قبل وصوله إلى الموصل، فحمل ودفن بظاهر باب العمادي ولما هرب قيماز خلع الخليفة على عضد الدين وأعاده إلى الوزارة.

سنة إحدى وسبعين إلى سنة ثمانين وخمسمائة

وفي سنة إحدى وسبعين

في عاشر شوال كان المصاف بين السلطان صلاح الدين وبين غازي صاحب الموصل بتل السلطان، فهرب سيف الدين غازي والعساكر التي كانت معه ، فإنه كان قد استنجد بصاحب حصن كيفا، وصاحب ماردين وغيرهما، وتمت على سيف الدين الهزيمة حتى وصل إلى الموصل مرعوباً، وقصد الهروب منها إلى بعض القلاع ، فسكنه وزيره، وأقام بالموصل واستولى صلاح الدين على أثقال عسكر الموصل وغيرها، وغنم ما فيها ، ثم سار صلاح الدين إلى بزاعة فحصرها وتسلمها ، ثم سار إلى منبج فحصرها في آخر شوال وصاحبها قطب الدين ينال بن حسان المنبجي، وكان شديد البغض لصلاح الدين ، وفتحها عنوة وأسر ينال، وأخذ جميع موجوده، ثم أطلقه فسار ينال إلى الموصل فأقطعه سيف الدين غازي مدينة الرقة، ثم سار السلطان صلاح الدين إلى أعزاز ونازلها ثالث ذي القعدة وتسلمها حادي عشر ذي الحجة، فوثب اسماعيلي على صلاح الدين فضربه بسكين في رأسه وجرحه فمسك صلاح الدين يد الاسماعيلي على تلك الحال، ووثب آخر عليه فقتله وثالث فقتل وجاء السلطان إلى خيمته مذعوراً وأعرض جنده وأبعد من

أنكره منهم ولما ملك السلطان أعزاز رحل عنها، ونازل حلب في منتصف ذي الحجة وحصرها ، وبها الملك الصالح بن نور الدين ، وانقضت هذه السنة وهو محاصر لحلب، فسألوا صلاح الدين في الصلح فأجابهم، وأخرجوا إليه بنتاً صغيرة لنور الدين فأكرمها وأعطاها شيئاً كثيراً، وقال لها: ما تريدين؟ فقالت: قلعة أعزاز، وكانوا قد علموها ذلك، فسلمها السلطان إليهم، واستقر الصلح، ورحل صلاح الدين عن حلب في العشرين من المحرم سنة اثنتين وسبعين.

وفيها نازل طاشتكين أمير الحاج العراقي مكة، وكان قد أمره الخليفة بعزل مكثر بن عيسى صاحب مكة، فجرى بين الحجاج وبينه قتال ، فانهزم مكثر في البرية، وأقام طاشتكين أخاه داود مقامه بمكه.

وفيها في ذي الحجة قدم تورانشاه بن أيوب من اليمن إلى الشام، وأرسل إلى أخيه صلاح الدين يعلمه بالحال، وكتب إليه أبياتاً من شعر أبي النجم المصري.

وإلى صلاح الدين أشكو أنني
من بعده مضنى الجوانح مولع
جزعاً لبعد الدار عنه ولم أكن
لولا هواه لبعد دار أجزع
ولأركبن إليه متن عزائمي
ويخب بي ركب الغرام ويوضع
ولأسرين الليل لا تسري به
طرف الخيال ولا البروق اللمع
وأقدمن إليه قلبي مخبراً
أني بجسمي عن قريب أتبع
حتى أشاهد منه أسعد طلعة
من أفقها صبح السعادة يطلع

-١٠٦٩٠-

وفي سنة اثنتين وسبعين

قصد السلطان صلاح الدين بلد الاسماعيلية في المحرم فنهبه وخربه وأحرقه، وحصر قلعة مصياف فارسل سنان مقدم الاسماعيلية إلى خال صلاح الدين وهو شهاب الدين الحارمي صاحب حماه يسأل أن يسعى في الصلح، فسأل الحارمي الصفح عنهم، فأجابهم صلاح الدين وصالحهم ورحل عنهم، وأتم السلطان صلاح الدين مسيره إلى مصر فإنه كان قد بعد عهده بها، بعد أن استقر له ملك الشام، ولما وصل إلى مصر في هذه السنة أمر ببناء السور الدائر على مصر والقاهرة والقلعة التي على جبل المقطم ودور ذلك تسعة وعشرون ألف ذراع بالهاشمي، ولم يزل العمل فيه إلى أن مات صلاح الدين، وفيها أمر صلاح الدين ببناء المدرسة التي على قبر الإمام الشافعي بالقرافة، وعمل بالقاهرة مارستان.

وفي سنة ثلاث وسبعين

وفي جمادى الأولى سار السلطان صلاح الدين من مصر إلى الساحل لغزو الفرنج، فوصل إلى عسقلان في رابع عشر منه فنهب، وتفرق عسكره في الإغارة ، وبقي السلطان في بعض العسكر فلم يشعر إلا بالفرنج قد طلعت عليه فقاتلهم أشد قتال ، وكان لتقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ولد اسمه أحمد وهو من أحسن الشباب أول ما تكاملت لحيته ، فقال له أبوه تقي الدين: احمل عليهم، فحمل على الفرنج وقاتلهم فأثر فيهم أثراً جميلاً، وعاد سالماً فأمره أبوه بالعود فقتل رجلاً من الأفرنج، وقتل شهيداً، وتمت الهزيمة على المسلمين، وقاربت حملات الفرنج السلطان فولى منهزماً إلى مصر على البرية ومعه من سلم، ولقوا في طريقهم مشقة من العطش وهلك كثير من الدواب، وأخذت الفرنج العسكر الذين كانوا تفرقوا للإغارة أسرى، وأسر الفقيه عيسى،

وكان من أكبر أصحاب السلطان، فافتداه السلطان من الأسر بعد سنتين بستين ألف دينار، ووصل السلطان إلى القاهرة نصف جمادى الآخرة.

قال ابن الأثير : رأيت كتاباً بخط يد صلاح الدين إلى أخيه تورانشاه نائبه بدمشق يذكر له الوقعة وأوله:

ذكـــرتـــك والخطـــي يخطـــر بيننـــا
وقـــد نهلـــت منـــا المثقفـــة السمـــر

ويقول فيه: لقد أشرفنا على الهلاك غير مرة، وما نجانا الله تعالى منه إلاّ لأمر يريده سبحانه وتعالى «وما ثبتت إلا وفي نفسها أمر[١١].»

وفيها سار الفرنج وحصروا مدينة حماه في جمادى الأولى ، وطمعت الفرنج بسبب بعد صلاح الدين بمصر وهزيمته من الفرنج، ولم يكن غيرتورانشاه بدمشق ينوب عن أخيه صلاح الدين، وليس عنده كثير من العسكر وكان تورانشاه أيضاً كثير الانهماك في اللذات مائلاً إلى الراحات، ولما حصروا حماه كان بها صاحبها شهاب الدين الحارمي خال صلاح الدين ، وهو مريض، واشتد حصار الفرنج لحماه، وطال زحفهم عليها حتى أنهم هجموا بعض أطراف المدينة وكادوا يملكون البلد قهراً بالسيف، ثم جد المسلمون في القتال وأخرجوا الفرنج إلى ظاهر السور وأقام الفرنج كذلك على حماه أربعة أيام، ثم رحلوا عنها إلى حارم، وعقيب رحيلهم عنها مات صاحبها شهاب الدين الحارمي،وكان له ابن من أحسن الناس شباباً فمات قبله بثلاثة أيام.

وفيها قبض السلطان الملك الصالح بن نور الدين صاحب حلب على سعد الدين كمشتكين ، وكان قد تغلب على الأمر وكانت حارم لكمشتكين، فأرسل الملك الصالح إليهم فلم يسلموها إليه، فأمر لكمشتكين أن يسلمها فأمرهم بذلك فلم يقبلوا منه، فأمر بتعذيب كمشتكين ليسلموا القلعة فعذب وأصحابه يرونه لايرحمونه حتى مات في

العذاب، وأصر الحال بأصحابه على الامتناع، ووصل الفرنج إلى حارم بعد رحيلهم عن حماه، وحصروا حارم أربعة أشهر ، فأرسل الملك الصالح مالاً للفرنج وصالحهم فرحلوا عن حارم، وبلغ أهلها الجهد وبعد أن رحل الفرنج عنها أرسل إليها الملك الصالح عسكراً وحصروها، فلم يبق بأهلها ممانعة فسلموها إلى الملك الصالح فاستناب بها مملوكاً كان لابيه اسمه سرخك.

وفيها في المحرم خطب للسلطان طغريل بن أرسلان بن طغريل بن السلطان محمد بن السلطان ملكشاه المقيم ببلاد ألدكز، وكان أبوه أرسلان الذي تقدم ذكره قد توفي.

وفيها في ذي الحجة قتل عضد الدين محمد بن عبد الله بن هبة الله وزير الخليفة، وكان قد عبر دجلة عازماً على الحج فقتله الاسماعيلية، وحمل مجروحاً إلى منزله فمات به، وكان مولده في جمادى الأولى سنة أربع عشرة وخمسمائة.

وفي سنة أربع وسبعين

طلب تورانشاه من أخيه صلاح الدين بعلبك، وكان السلطان أعطاها شمس الدين محمد بن عبد الملك المقدم لما سلم دمشق إلى صلاح الدين، فلم يمكن صلاح الدين منع أخيه عن ذلك، فأرسل إلى ابن المقدم ليسلم بعلبك فعصى بها ولم يسلمها، فارسل السلطان وحصره ببعلبك فطال حصارها فأجاب ابن المقدم إلى تسليمها على عوض، فعوض عنها، وسلمها السلطان فأقطعها أخاه تورانشاه.

وفيها كان بالبلاد غلاء عام وتبعه وباء عام.

وفيها سير السلطان صلاح الدين ابن أخيه تقي الدين عمر بن

شاهنشاه إلى حماه، وابن عمه محمد بن شيركوه إلى حمص وأمرهما بحفظ بلادهما، فاستقر كل واحد منهما بحفظ بلاده.

وفي سنة خمس وسبعين

سار صلاح الدين وفتح حصناً كان بناه الفرنج عند مخاضة الأحزان، بالقرب من بانياس عند بيت يعقوب وفي ذلك يقول علي بن محمد الساعاتي الدمشقي:

أتسكن أوطان النبيين عصبة
تمين لدى أيمانها وهي تحلف
نصحتكم والنصح للدين واجب
ذروا بيت يعقوب فقد جاء يوسف

وفيها كانت حرب بين عسكر السلطان صلاح الدين ومقدمهم ابن أخيه تقي الدين عمر، وبين عسكر قليج أرسلان بن مسعود صاحب بلاد الروم، وسببها أن حصن رعبان كان بيد شمس الدين ابن المقدم، وطمع فيه قليج أرسلان، وأرسل إليه عسكراً ليحصروه، وكانوا قرابة عشرين ألفاً، فسار إليهم تقي الدين في ألف فارس فهزمهم، وكان يفتخر ويقول: هزمت بألف عشرين ألفاً.

وفيها في ثاني ذي القعدة توفي المستضيء بأمر الله أبو محمد الحسن بن يوسف، وكان قد حكم في دولته ظهير الدين أبو بكر منصور بن نصر المعروف بابن العطار بعد قتل عضد الدين الوزير، فلما مات المستضيء قام ظهير الدين ابن العطار ، وأخذ البيعة لولده الناصر لدين الله.

خلافة الناصر لدين الله بن المستضيء رابع ثلاثين خلفاء بني العباس

ولما استقرت بيعة الناصر حكم استاذ دار مجد الدين أبو الفضل، وقبض على ظهير الدين بن العطار في سابع ذي القعدة ونقل إلى التاج، وأخرج ظهير الدين المذكور ميتاً على رأس حمال ليلة الأربعاء ثاني عشر ذي القعدة فثارت به العامة وألقوه عن رأس الحمال وشدوا في ذكره حبلاً وجروه في البلد، وكانوا يضعون في يده مغرفة، يعني أنها قلم، وقد غمست في العذرة، ويقولون: وقع لنا يامولانا، هذا فعلهم به، مع حسن سيرته، وكفه عن أموالهم، ثم خلص منهم ودفن.

وفيها في ذي القعدة نزل تورانشاه أخو صلاح الدين عن بعلبك، وطلب عوضها الاسكندرية، فأجابه السلطان صلاح الدين إلى ذلك واقطع بعلبك لعز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب، فسار فرخشاه إلى بعلبك وسار شمس الدولة تورانشاه إلى الاسكندرية وأقام بها إلى أن مات .

وفي سنة ست وسبعين

في ثالث صفر توفي سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي صاحب الموصل والديار الجزرية ، وكان مرضه السل، وطال، وكان عمره نحو ثلاثين سنة، وكانت ولايته عشر سنين ونحو ثلاثة أشهر ، وكان حسن الصورة مليح الشباب تام القامة أبيض اللون عاقلاً عادلاً عفيفاً، شديد الغيرة لايدخل بيته غير الخدم إذا كانوا صغاراً، فإذا كبر أحدهم منعه، وكان عفيفاً عن أموال الرعية مع شح كان فيه، وأوصى بالمملكة بعده إلى أخيه عز الدين مسعود بن مودود، وأعطى جزيرة ابن عمر وقلاعها لولده سنجر شاه، فاستقر ذلك بعد موته حسبما قرره، وكان مدبر الدولة والحاكم فيها مجاهد الدين قيماز،

وفيها سار السلطان صلاح الدين إلى جهة قليج أرسلان بن مسعود صاحب بلاد الروم ووصل إلى رعبان، ثم اصطلحوا فقصد صلاح الدين إلى جهة بلاد ابن ليون الأرمني، وشن فيها الغارات فصالحه ابن ليون على مال حمله وأسرى أطلقهم.

وفيها توفي شمس الدولة تورانشاه بن أيوب أخو صلاح الدين الأكبر بالاسكندرية، وكان له معها أكثر بلاد اليمن ونوابه هناك يحملون إليه الأموال من زبيد وعدن وغيرهما، وكان أجود الناس وأسخاهم كفاً، يخرج كلما يحمل إليه من الأموال اليمنية ودخل الاسكندرية ، ومع هذا لما مات كان عليه مائتي ألف دينار مصرية ديناً، فوفاها أخوه صلاح الدين عنه لما وصل إلى مصر هذه السنة في شعبان، واستخلف بالشام ابن أخيه عز الدين فرخشاه ابن شاهنشاه بن أيوب صاحب بعلبك.

وفي سنة سبع وسبعين

عزم البرنس صاحب الكرك على المسير إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم والإستيلاء على تلك النواحي الشريفة، وسمع بذلك عز الدين فرخشاه نائب عمه السلطان صلاح الدين بدمشق، فجمع وقصد بلاد الكرك وأغار عليها، وأقام في مقابلة البرنس، ففرق البرنس جموعه وانقطع عزمه عن الحركة.

وفيها وقع بين نواب تورانشاه باليمن بعد موته اختلاف كبير، فخشي السلطان صلاح الدين فجهز إليها جيشاً مع جماعة من أمرائه، فوصلوا إلى اليمن وأسرعوا واستولوا عليها، وكان نائب تورانشاه على عدن عز الدين عثمان الزنجيلي وعلى زبيد حطان بن كامل بن منقذ الكناني، من بيت صاحب شيزر.

وفيها في رجب توفي الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين محمود بن زنكي بن آق سنقر صاحب حلب، وعمره نحو تسع عشرة سنة ، ولما اشتد به مرض القولنج وصف له الأطباء الخمر، فمات ولم يستعمله، وكان حليماً عفيف اليد والفرج واللسان، ملازماً لأمور الدين، لايعرف له شيئاً مما يتعاطاه الشباب، وأوصى بملك حلب إلى ابن عمه عز الدين مسعود ابن مودود بن زنكي صاحب الموصل، فلما مات سار مسعود ومجاهد الدين قيماز من الموصل إلى حلب، واستقر في ملكها، وكاتبه أخوه عماد الدين زنكي بن مودود صاحب سنجار في أن يعطيه حلب، ويأخذ منه سنجار، فاشار قيماز بذلك ، فلم يمكن مسعود إلا موافقته، وأجاب إلى ذلك ، فسار عماد الدين إلى حلب وتسلمها، وسلم سنجار إلى أخيه مسعود، وعاد مسعود إلى الموصل.

وفي سنة ثمان وسبعين

خامس المحرم سار السلطان صلاح الدين عن مصر إلى الشام ، ومن عجيب الاتفاق أنه لما برز من القاهرة ، وخرجت أعيان الناس لوداعه، أخذ كل يقول شيئاً في الوداع وفراقه، وفي الجماعة معلم لبعض أولاد السلطان فأخرج رأسه من بين الحاضرين وأنشد:

تمتع من شميم عرار نجد
فما بعد العشية من عرار

فتطير صلاح الدين ، وانقبض بعد انبساطه، وتنكد المجلس على الحاضرين، فلم يعد بعدها صلاح الدين إلى مصر مع طول المدة، وسار السلطان صلاح الدين وأغار في طريقه على بلاد الفرنج وغنم، ووصل إلى دمشق في حادي عشر صفر، ولما سار السلطان إلى الشام اجتمعت الفرنج قرب الكرك ليكونوا على طريقه فانتهز فرخشاه ابن أخي السلطان الفرصة وسار إلى الشقيف بعساكر الشام وفتحه، وغار على ما يجاوره من بلاد الفرنج، وأرسل إلى السلطان وبشره بذلك.

وفيها سير السلطان أخاه سيف الإسلام طغتكين إلى بلاد اليمن ليملكها ويقطع الفتن عنها، وكان بها حطان بن منقذ الكناني، وعز الدين عثمان الزنجيلي قد عاد إلى ولايتهما، فإن الأمير الذي كان قد سيره السلطان نائباً إلى اليمن تولى وعزلهما، ثم توفي فعاد بين حطان وعثمان الفتن قائمة، فوصل سيف الإسلام إلى زبيد فتحصن حطان في بعض القلاع، فلم يزل سيف الإسلام يتلطف به حتى نزل إليه فأحسن صحبته، ثم إن حطان طلب دستوراً ليسير إلى الشام، فلم يجبه إلا بعد جهد ، فجهز حطان أثقاله قدامه، ودخل حطان ليودع سيف الإسلام فقبض عليه، وأرسل استرجع أثقاله وأخذ جميع ماله، وكان فيما أخذه سيف الإسلام من حطان سبعين غلاف زردية مملوءة ذهباً عيناً، ثم سجن حطان في بعض قلاع اليمن، فكان آخر العهد به ،وأما عثمان الزنجيلي، فإنه لما جرى لحطان ذلك خاف وسار نحو الشام وسير أمواله في البحر فصادفها مراكب سيف الإسلام فأخذوا كلما لعثمان الزنجيلي وصفت اليمن لسيف الإسلام.

وفيها سار السلطان صلاح الدين من دمشق في ربيع الأول ونزل قرب طبرية وشن الإغارة على بلاد الفرنج مثل بيسان وجينين والغور، فغنم وقتل وعاد إلى دمشق، ثم سار إلى بيروت وحصرها وأغار على بلادها، ثم عاد إلى دمشق ، ثم سار إلى البلاد الجزرية، وعبر الفرات من البيرة فصار معه مظفر الدين كوكبوري بن زين الدين علي كوجك بن بلتكين، وكان حينئذ صاحب حران، وكاتب السلطان صلاح الدين ملوك تلك الأطراف واستمالهم فأجابه نور الدين محمد بن قرا أرسلان صاحب حصن كيفا ، وصار معه وحاصر السلطان الرها، وملكها وسلمها إلى مظفر الدين كوكبوري صاحب حران، ثم سار السلطان إلى الرقة، وأخذها من صاحبها قطب الدين ينال بن حسان المنبجي، فسار ينال إلى عز الدين مسعود صاحب الموصل، ثم سار السلطان إلى الخابور وملك

قرقيسيا وماكسين وعربان، واستولى على الخابور جميعه، ثم سار إلى نصيبين وحاصرها وملك المدينة، ثم ملك القلعة وأقطع نصيبين أميراً كان معه يقال له أبو الهيجاء السمين، ثم سار عن نصيبين وقصد الموصل وقد استعد صاحبها عز الدين مسعود ومجاهد الدين للحصار، وشحنوها بالرجال والسلاح، فحصر السلطان الموصل وأقام عليها منجنيقاً فأقاموا من داخل المدينة تسعة مناجينيق، وضايق الموصل فنزل السلطان محاذيا باب كندة، ونزل صاحب حصن كيفا باب الجسر، ونزل تاج الملوك بوري أخو صلاح الدين على باب العمادي، وجرى القتال بينهم وكان ذلك في شهر رجب، فلما رأى حصارها يطول رحل عن الموصل إلى سنجار وحاصرها وملكها، واستناب بها سعد الدين بن معين الدين أنر، وكان من أكابر الأمراء وأحسنهم صورة ومعنى، ثم سار السلطان إلى حران وعزل في طريقه أبا الهيجاء عن نصيبين.

وفيها عمل البرنس صاحب الكرك اصطولاً في بحر أيلة، وساروا في البحر فرقتين : فرقة أقامت على حصن أيلة يحصرونه ، وفرقة سارت نحو عيذاب يفسدون في السواحل، وبغتوا المسلمين بتلك النواحي، فإنهم لم يعهدوا بذلك البحر فرنجياً قط، وكان بمصر الملك العادل أبي بكر نائباً عن أخيه السلطان صلاح الدين، فعمل اصطولاً في بحر عيذاب وأرسله مع حسام الدين لؤلؤ الحاجب وهو متولي الاصطول بمصر، وكان مظفراً، فيه شجاعة ، فسار حسام الدين مجداً في طلبهم وأوقع بالذين يحاصرون أيلة فقتلهم وأسرهم، ثم سار في طلب الفرقة الثانية، وكانوا قد عزموا على الدخول إلى الحجاز الشريف ومكة والمدينة حرسها الله تعالى ، وسار لؤلؤ يقفو أثرهم فبلغ رابغ فأدركهم بساحل الحوراء، وتقاتلوا في البحر أشد قتال، وظفر الله تعالى المسلمين بهم، وقتل لؤلؤ أكثرهم وأخذ الباقين أسرى، وأرسل مهم ألفي رجل إلى منى لينحروا بها، وعاد بالباقين إلى مصر فقتلوا عن آخرهم.

وفيها توفي عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب، صاحب بعلبك، وكان ينوب عن صلاح الدين بدمشق وهو ثقته من بين أهله، وكان فرخشاه شجاعاً كريماً فاضلاً، له شعر جيد، ووصل خبر موته إلى صلاح الدين وهو في البلاد الجزرية فأرسل إلى دمشق شمس الدولة محمد بن عبد الملك المقدم ليكون بها ، وأقر بعلبك على بهرام شاه بن فرخشاه المذكور.

وفي سنة تسع وسبعين

ملك صلاح الدين حصن آمد بعد حصار وقتال في العشر الأول من المحرم، وسلمه إلى نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود بن سقمان بن أرتق صاحب حصن كيفا، ثم سار إلى الشام، وقصد تل خالد من أعمال حلب وملكه، ثم سار إلى عين تاب وحصرها وبها ناصر الدين محمد بن الشيخ اسماعيل الذي كان خازن نور الدين محمود بن زنكي، وكان قد سلم نور الدين عين تاب إلى اسماعيل المذكور فبقت معه إلى الآن، فحاصرها وملكها بتسليم صاحبها إليه فأقره صلاح الدين عليها وبقي من جملة أمراء السلطان ثم سار السلطان إلى حلب وحصرها وبها عماد الدين زنكي بن مودود بن عماد الدين زنكي بن آق سنقر فطال الحصار عليه، وكان قد كثرت اقتراحات أمراء حلب وأهلها عليه ، وقد ضجر من ذلك، وقد كره حلب، لذلك فأجاب السلطان صلاح الدين إلى تسليم حلب على أن يعوض عنها سنجار ونصيبين، والخابور، والرقة، وسروج، واتفقوا على ذلك، وسلم حلب إلى السلطان في صفر هذه السنة، وكان أهل حلب ينادون على عماد الدين: « ياحمار بعت حلب بسنجار» ، وشرط السلطان على عماد الدين زنكي الحضور إلى خدمته بنفسه وعسكره ،متى استدعاه لايحتج بحجة عن ذلك،ومن عجيب الإتفاق أن محيي الدين بن الزكي قاضي دمشق مدح السلطان بقصيدة منها:

وفتحكم حلباً بالسيف في صفر
مبشراً بفتوح القدس في رجب

فوافق فتح القدس في رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، وكان من جملة من قتل على حلب تاج الدين بوري أخو السلطان الأصغر ، وكان شجاعاً كريماً طعن في ركبته فانفلقت فهات منها، ولما استقر الصلح عمل زنكي دعوة للسلطان واحتفل فيها، فبيناهم في سرورهم إذ جاء انسان فأسر إلى السلطان بموت أخيه، فوجد عليه في قلبه وجداً عظيماً، وأمر بتجهيزه سراً، ولم يعلم السلطان في ذلك الوقت أحداً ممن كان في تلك الدعوة لئلا يتنكد عليهم ما هم فيه، وكان السلطان يقول: ما وقعت علينا حلب رخيصة بموت بوري، وكان هذا من السلطان من الصبر العظيم، ولما ملك السلطان حلب أرسل إلى حارم وبها سرخك الذي ولاه الملك الصالح بن نور الدين في تسليم حارم، وجرى بينهما مراسلة فلم ينتظم بينهما حال، وكاتب سرخك الفرنج، فوثب عليه أهل القلعة وقبضوه وسلموا حارم إلى السلطان، فتسلمها وقرر أمر بلاد حلب وأقطع أعزاز أميراً يقال له سليمان بن جندر.

وفيها قبض عز الدين صاحب الموصل على نائبه مجاهد الدين قيماز.

وفيها لما فرغ السلطان من تقرير أمر حلب جعل فيها ولده الملك الظاهر غازي، وسار إلى دمشق وتجهز منها للغزو وعبر نهر الأردن تاسع جمادى الآخرة من هذه السنة، وأغار على بيسان وأحرقها، وشن الإغارة على تلك النواحي، ثم تجهز السلطان إلى الكرك وأرسل إلى أخيه الملك العادل أبي بكر بمصر يأمره أن يلاقيه إليها، فسارا واجتمعا عليها وحصر الكرك وضيق عليها، ثم رحل عنها في منتصف شعبان وسار معه أخوه العادل، وأرسل السلطان ابن أخيه الملك المظفر تقي الدين عمر إلى مصر نائباً له موضع العادل، ووصل السلطان إلى دمشق وأعطى

أخوه العادل مدينة حلب وقلعتها وأعمالها، وسيره في شهر رمضان، وأحضر ولده الظاهر منها إلى دمشق.

وفيها توفي شاه أرمن ابن سكمان بن ظهير الدين ابراهيم بن سكمان القطبي صاحب خلاط، وكان عمره لما توفي أربعاً وستين سنة، ولما توفي شاه أرمن كان بكتمر مملوك أبيه بميافارقين فلما سمع بكتمر بموته سار من ميافارقين إلى خلاط، وكان أهلها يريدونه ومماليك شاه أرمن متفقين معه، فأول وصوله تملك خلاط وجلس على كرسي شاه أرمن ، واستقر في مملكة خلاط حتى قتل سنة تسع وثمانين.

وفي سنة ثمانين وخمسمائة

سار أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ملك الغرب إلى بلاد الأندلس، وعبر البحر في جمع عظيم من عساكره، وقصد بلاد الفرنج وحصر شنترين من غرب الأندلس، وأصابه مرض فمات منه في ربيع الأول، وحمل في تابوت إلى مدينة إشبيلية، وكان حسن السيرة ، واستقامت له المملكة لحسن تدبيره، ولما مات بايع الناس ولده يعقوب ابن يوسف وكنيته أبو يوسف، وملكوه عليهم في الوقت الذي مات فيه أبوه لئلا يكونوا بغير ملك يجمع كلمتهم لقربهم من العدو، فقام يعقوب بالملك أحسن قيام، وأقام راية الجهاد، وأحسن السيرة.

وفيها في ربيع الآخر سار السلطان صلاح الدين من دمشق للغزاة ، وكتب إلى مصر، فسارت عساكره إليها، ونازل الكرك وضيق عليه، وملك ربضه ، وبقيت القلعة وليس بين القلعة والربض إلا خندق عميق، وقصد السلطان طمه فلم يمكنه لكثرة المقاتلة، فجمعت الفرنج فارسها وراجلها وقصدوه، فلم يمكن السلطان إلاّ الرحيل فرحل إليهم، فأقاموا في أماكن وعرة، وأقام السلطان قبالتهم، وسار من الفرنج جماعة ودخلوا

الكرك، فعلم بامتناعه عليه، فسار إلى نابلس وأحرقها، ونهب ما بتلك النواحي وقتل وسبى فأكثر فسار إلى سبسطية وبها مشهد زكريا فاستنقذ من بها من أسرى المسلمين ثم سار إلى جينين، وعاد إلى دمشق.

وفيها مات قطب الدين إلغازي بن نجم الدين ألبي بن حسام الدين تمرتاش بن ايلغازي بن أرتق صاحب ماردين، وقد تقدم في سنة سبع وخمسمائة ملك ألبي بن تمرتاش، وبقي ألبي في ملك ماردين حتى مات وملك ولده قطب الدين ايلغازي، ولما مات ايلغازي المذكور كان له أولاد أطفال ، فأقيم في الملك بعده ولده حسام الدين بولق أرسلان ، وقام بتدبير المملكة مملوك والده نظام الدين البقش حتى كبر بولق أرسلان ، وكان به هوج وخبط فمات بولق وأقام أبق بعد أخاه أرتق أرسلان ولقبه ناصر الدين ولم يكن له حكم بل الحكم إلى البقش وإلى مملوك للبقش اسمه لؤلؤ كان قد تغلب على استاذه البقش بحيث كان لايخرج البقش عن رأي لؤلؤ المذكور، وبقي الأمر كذلك إلى سنة إحدى وستمائة فمرض النظام البقش وأتاه ناصر الدين صاحب ماردين يعوده ، فلما خرج من عنده خرج معه لؤلؤ فضربه ناصر الدين بسكين فقتله وعاد إلى البقش فضربه بسكين فقتله أيضاً، واستقل ناصر الدين أرتق أرسلان بملك ماردين من غير منازع.

وفيها سار شيخ الشيوخ صدر الدين عبد الرحيم من عند الخليفة إلى صلاح الدين في رسالة، ومعه شهاب الدين بشير الخادم ليصلحا بين السلطان صلاح الدين وبين عز الدين مسعود صاحب الموصل فلم ينتظم حال، واتفق أنهما مرضا بدمشق وطلبا المسير إلى العراق وسارا في الحر فمات بشير بالسخنة ومات صدر الدين شيخ الشيوخ بالرحبة ودفن بمشهد البوق، وكان أوحد زمانه قد جمع بين رئاسة الدين والدنيا.

وفيها في محرم أطلق عز الدين مسعود صاحب الموصل مجاهد الدين قيماز من الحبس وأحسن إليه.

سنة إحدى وثمانين إلى سنة تسعين وخمسمائة

في سنة إحدى وثمانين

حصر السلطان صلاح الدين الموصل وهو حصاره الثاني، فأرسل إليه عز الدين مسعود والدته وابنة عمه نور الدين محمود بن زنكي وغيرهما من النساء يطلبون منه ترك الموصل وما بأيديهم، فردهم، واستقبح الناس ذلك من صلاح الدين لاسيما والشفعاء بنت نور الدين وأخوها ووالدة عز الدين ، وحاصر الموصل وضايقها وبلغه وفاة شاه أرمن صاحب خلاط في ربيع الآخر هذه السنة فسار عن الموصل إلى جهة خلاط وملكها.

وفيها توفي نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود بن سقمان بن أرتق صاحب حصن كيفا وآمد، وملك بعده ولده قطب الدين سقمان ، وكان صغيراً فقام بتدبيره القوام بن ساقا الأسعردي وحضر سقمان إلى السلطان صلاح الدين وهو نازل على ميافارقين فأقره على ما كان بيد والده نور الدين محمد بن قرا أرسلان، وأقام معه أميراً من أصحاب والده.

ملك صلاح الدين ميافارقين

لما سار السلطان عن الموصل إلى أخلاط جعل طريقه على ميافارقين، وكانت لصاحب ماردين الذي توفي، وبها من يحفظها من جهة شاه أرمن، ، صاحب خلاط المتوفى، فحاصرها السلطان وملكها في سلخ جمادى الأولى ، ثم إن السلطان رجع عن قصد أخلاط إلى الموصل، فجاءته رسل عز الدين مسعود، يسأل الصلح، واتفق أن السلطان مرض ورجع من كفرزمار عائداً إلى حران فلحقته رسل صاحب الموصل

بالإجابة إلى ما طلب، وهو أن يسلم صاحب الموصل إلى السلطان شهرزور وأعمالها، وولاية القراملي وجميع ماوراء الزاب، وأن يخطب للسلطان صلاح الدين على جميع منابر الموصل، وأن يضرب اسمه على الدراهم والدنانير، وتسلم السلطان ذلك، واستقر الصلح وأمنت البلاد، ووصل السلطان إلى حران، وأقام بها مريضاً، واشتد به المرض حتى أنهم أيسوا منه، ثم إنه عوفي وعاد إلى دمشق في المحرم سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة، ولما اشتد مرض السلطان سار ابن عمه محمد بن شيركوه صاحب حمص إلى حمص، وكاتب بعض أكابر دمشق في أن يسلموا إليه دمشق إذا مات السلطان، وفيها ليلة عيد الأضحى شرب بحمص صاحبها ناصر الدين محمد بن شيركوه بن شادي، فأصبح ميتاً، قيل إن السلطان صلاح الدين دس عليه من سقاه سماً فمات، لما بلغه مكاتبته أهل دمشق في مرضه، ولما مات أقر السلطان حمص وما بيد محمد على ولده شيركوه، وعمره اثنتا عشرة سنة، وخلف صاحب حمص شيئاً كثيراً من الدواب والآلات وغيرها، فاستعرضها السلطان عند نزوله بحمص في عوده من حران، وأخذ أكثرها ، ولم يترك إلاّ مالا خير فيه.

وفي سنة اثنتين وثمانين

أحضر السلطان ولده الملك الأفضل من مصر وأقطعه دمشق ، وسببه أن الملك المظفر تقي الدين عمر ابن أخي السلطان، كان نائب عمه بمصر، ومعه الملك الأفضل ، فأرسل الملك المظفر يشتكي من الأفضل: إنني لاأتمكن من استخراج الخراج لأنني إذا أحضرت من عليه الخراج ، وأردت عقوبته يطلقه الملك الأفضل، فأخرج السلطان ولده من مصر وأقطعه دمشق، وتغير السلطان على تقي الدين في الباطن لأنه ظن أنه إنما أخرج الأفضل من مصر ليتملكها إذا مات السلطان، ثم أحضر أخاه العادل من حلب، وجعل معه العزيز عثمان ولده نائباً عنه بمصر، واستدعى تقي الدين من مصر، فتوقف عن الحضور، وقصد اللحوق

بمملوكه قراقوش المستولي على بلاد برقة وإفريقية من المغرب، وبلغ السلطان ذلك فساءه، وأرسل يستدعي تقي الدين ويلاطفه، فحضر إليه ولما حضر تقي الدين عند السلطان زاده حماه وعليها منبج، والمعرة ، وكفر طاب، وميافارقين، وجبل جور، بجميع أعمالها.

واستقر العزيز عثمان ولد السلطان بمصر هو والعادل ، ولما أخذ السلطان حلب من أخيه العادل عوضه عنها حران والرها، وفيها غدر البرنس صاحب الكرك، وأخذ قافلة عظيمة من المسلمين، وأسرهم ، وأرسل السلطان يطلب منه إطلاقهم بحكم الهدنة التي كانت بينهم على ذلك، فلم يفعل، فنذر السلطان أنه إن ظفّره الله به قتله بيده.

وفيها توفي البهلوان محمد بن ألدكز صاحب بلد الجبل وهمذان والري وأصفهان وأذربيجان وأرانية وغيرها من البلاد، وكان عادلاً حسن السيرة وملك البلاد بعده أخوه قزل أرسلان عثمان ، وكان السلطان طغريل ابن محمد بن ملكشاه السلجوقي مع البهلوان، وله الخطبة في بلاده وليس له من الأمر شيء فلما مات البهلوان خرج طغريل عن حكم قزل، وكثر جمعه، واستولى على بعض البلاد وجرى بينه وبين قزل أرسلان حروب.

- ١٠٧٠٦ -

وفي سنة ثلاث وثمانين

كانت مبادىء غزوات صلاح الدين وفتوحه، ففيها جمع السلطان العساكر وسار بفرقة من العسكر، وضايق الكرك خوفاً على الحجاج من صاحب الكرك، وأرسل فرقة أخرى مع ولده الملك الأفضل، فأغاروا على بلاد عكا وتلك الناحية ، وغنموا شيئاً كثيراً، ثم سار السلطان ونزل على طبرية، وحصر مدينتها وفتحها عنوة بالسيف، وتأخرت القلعة، وكانت طبرية للقومص صاحب طرابلس، وكان قد هادن السلطان ودخل في طاعته، فأرسلت الفرنج إلى القومص القسوس والبطرك ينهونه عن موافقة السلطان ويوبخونه ، فصار معهم، واجتمع الفرنج لملتقى السلطان، فكانت.

وقعة حطين

وهي الوقعة العظيمة التي فتح الله بها الساحل وبيت المقدس.

لما فتح السلطان طبرية اجتمعت الفرنج بفارسهم وراجلهم، وساروا إلى السلطان ، فركب السلطان من طبرية وسار إليهم يوم السبت لخمس بقين من ربيع الآخر، والتقى الجمعان واشتد بينهم القتال،فلما رأى القومص شدة الأمر حمل على من قبله من المسلمين، وكان هناك تقي الدين عمر صاحب حماه، فأفرج له ثم عطف عليه فقتل ألف فارس من أصحابه ، ونجا القومص من المعركة، ووصل إلى طرابلس وبقي مدة، ومات عنتاً، ونصر الله المسلمين وأحدقوا بالفرنج من كل جانب وأبادهم قتلا وأسراً، وكان من جملة من أسر ملك الفرنج الكبير، والبرنس أرناط صاحب الكرك وصاحب جبيل، والهنفري بن هنفري ومقدم الداوية، وجماعة من الاسبتارية. وما أصيب الفرنج من حين خرجوا إلى الشام، وهي سنة إحدى وتسعين وأربعمائة بمصيبة مثل هذه الوقعة.

ولما انقضى المصاف جلس السلطان في خيمة، وأحضر ملك الفرنج وأجلسه إلى جانبه، وكان الحر والعطش به شديداً، فسقاه ماء مثلوجاً، فسقى ملك الفرنج منه البرنس أرناط صاحب الكرك، فقال له السلطان: إن هذا الملعون لم يشرب الماء باذني، فيكون أمانا له، ثم كلم السلطان البرنس ووبخه وقرعه على غدره وقصده الحرمين الشريفين، وقام السلطان بنفسه فضرب عنقه بيده، فارتعدت فرائص ملك الفرنج، فسكنه السلطان، ثم عاد السلطان إلى طبرية وفتح قلعتها بالأمان، ثم سار إلى عكا وحاصرها وفتحها بالأمان ، ثم راسل أخاه الملك العادل فحاصر مجدل يابا وفتحه عنوة بالسيف، ثم فرق السلطان عسكره ففتحوا : الناصرة ، وقيسارية، وحيفا ، وصفورية ، ومعليا، والفولة، وغيرها من البلاد المجاورة لعكا بالسيف، وغنموا وقتلوا وأسروا أهل هذه الأماكن ، وأرسل فرقة إلى نابلس ففتحوا قلعتها بالأمان، وسار السلطان إلى تبنين وفتحها بالأمان، ثم سار السلطان الملك الناصر صلاح الدين إلى صيدا فأخلاها صاحبها وتسلمها السلطان ساعة وصوله لسبع بقين من جمادى الأولى هذه السنة، ثم سار إلى بيروت وحصرها وتسلمها في التاسع والعشرين من جمادى الأولى بالأمان، وكان حصرها مدة ثمانية أيام، وكان صاحب جبيل من أعظم الفرنج وأشدهم عداوة للمسلمين، ولم تك عاقبة اطلاقه حميدة، وأرسل السلطان من تسلم جبيل وأطلقه.

وفيها حضر المركيس في سفينته إلى عكا، وهي للمسلمين ، ولم يعلم المركيس بذلك، واتفق هجوع الهواء، فراسل المركيس الملك الأفضل ، وهو بعكا يقترح أمانا، فكتب له الملك الأفضل أمانا، فرده يشترط فيه شروطاً، فأجيب إليها، فراسل الملك الأفضل يعلمه أنه يدوس بساطه في يوم معلوم، فصبر عليه الملك الأفضل، فاتفق في ذلك اليوم تحرك الهواء، فأقلع المركيس إلى صور، واجتمعت عليه الفرنج الذين بها، وملك صور، وكان وصول المركيس إلى صور واطلاق الفرنج الذين أخذ السلطان بلادهم بالأمان وأطلقهم من أعظم أسباب الضرر التي حصلت حتى

راحت عكا، وقوي الفرنج بذلك، ثم سار السلطان إلى عسقلان وحاصرها أربعة عشر يوما، وتسلمها بالأمان سلخ جمادى الأخرة، ثم بث السلطان عسكره ففتحوا : الرملة ، والدارون، وغزة، وبيت لحم، وبيت جبريل، والنطرون، وغير ذلك ، ثم سار السلطان ونازل القدس وبه من النصارى عدد يفوت الحصر، وضايق السلطان السور بالنقابين، واشتد القتال بينهم، وعلقوا السور، فطلب الفرنج الأمان، فلم يجبهم السلطان إليه، وقال: لا آخذها إلا بالسيف مثلما أخذها الفرنج من المسلمين، فعاودوه بالأمان، وعرفوه ما هم عليه من الكثرة وأنهم إن أيسوا من الأمان قاتلوا خلاف ذلك، فأجابهم السلطان إليه بشرط أن يؤدي كل من بها من الرجال عشرة دنانير، ومن النساء خمسة، ومن الأطفال ديناريين، ومن عجز عن الأداء كان أسيراً، فأجيب إلى ذلك ، وسلمت إليه المدينة يوم الجمعة سابع وعشرين رجب، وكان يوماً مشهوداً، ورفعت الأعلام الاسلامية على أسواره، ورتب السلطان على أبواب البلد من يقبض منهم المال المذكور، فخان المرتبون في ذلك ، ولم يقبضوا منه إلاّ القليل، وكان على رأس قبة الصخرة صليب كبير مذهب ، فتسلق المسلمون ، وقلعوه، وسمع لذلك ضجة عظيمة لم يعهد مثلها من المسلمين للفرح والسرور، ومن الكفار التفجع والتوجع، وكان الفرنج قد عملوا في الجامع الأقصى هرياً ومستراحاً، فأمر السلطان بازالة ذلك وإعادة الجامع إلى ما كان عليه ، وكان نور ا لدين محمود بن زنكي قد عمل منبراً بحلب، وتعب عليه مدة، وقال: هذا لأجل القدس، فأرسل صلاح الدين أحضره من حلب، وجعله في الجامع الأقصى، وأقام السلطان بعد فتوح القدس بظاهره إلى الخامس والعشرين من شعبان يدبر أمور البلد وأحواله، وتقدم بعمل الربط والمدارس الشافعية، ثم رحل إلى عكا ومنها إلى صور، وصاحبها المركيس قد حصنها بالرجال، وحفر خنادقها، ونزل السلطان على صور تاسع شهر رمضان، وحاصرها وضايقها ، وطلب الأسطول، فوصل إليه في عشر شوان، فاتفق أن

الفرنج كبسوهم وأخذوا خمس شواني، ولم يسلم من المسلمين إلا من سبح ونجا، وأخذ الباقون ، فطال الحصار عليها ، فرحل السلطان في آخر شوال ، وكان أول كانون أول . وأقام بعكا وأعطى العساكر الدستور، فسار كل واحد إلى بلده، وبقي السلطان بعكا في حلقته، وأرسل إلى هونين ففتحها بالأمان.

وفيها سار شمس الدين محمد بن عبد الملك المقدم حاجاً، وكان هو أمير الحاج الشامي ليجمع بين الغزاة وزيارة القدس والخليل والحج في عام واحد، فسار ووقف بعرفات ولما أفاض أرسل إليه مجير الدين طاشتكين أمير الحاج العراقي يمنعه من الإفاضة قبله، فلم يلتفت إليه، فسار العراقيون واشتبكوا مع الشاميين فقتل بينهم جماعة وابن المقدم يمنع أصحابه من القتال، ولو مكنهم لانتصفوا من العراقيين ، فجرح ابن المقدم ومات شهيداً، ودفن بمقبرة المعلى.

وفيها قوي أمر السلطان طغريل بن أرسلان شاه بن طغريل بن السلطان محمد بن السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان بن جغري بك داود بن ميكائيل بن سلجوق، وملك كثيراً من البلاد، وأرسل قزل أرسلان بن ألدكز يستنجد الخليفة ويخوفه عاقبة أمر طغريل.

وفيها سار شهاب الدين الغوري وغزا بلاد الهند.

وفيها قتل الخليفة الناصر استاذ داره أبا الفضل مجد الدين بن الصاحب، ولم يكن للخليفة معه حكم، وظهر له أموال عظيمة فأخذت جميعها، وفيها استوزر الخليفة الناصر جلال الدين أبا المطهر عبيد الله بن يونس، ومشى أرباب الدولة في ركابه حتى قاضي القضاة.

- ١٠٧١٠ -

وفي سنة أربع وثمانين

شتى السلطان في عكا، ثم سار بمن معه إلى كوكب، وجعل على حصارها الأمير قيماز النجمي، وسار منها في ربيع الأول، ودخل دمشق ، وفرح الناس بقدومه، وكتب إلى الأطراف باجتماع العساكر، وأقام في دمشق خمسة أيام وسار منها في ربيع الأول من السنة، ونزل على بحيرة قدس غربي حمص وأتته العساكر بها، فأولهم عماد الدين زنكي بن مودود ابن زنكي بن آق سنقر صاحب سنجار ونصيبين ، ولما تكاملت العساكر رحل ونزل تحت حصن الأكراد، وشن الغارات على بلاد الفرنج، وسار من حصن الأكراد فنزل على أنطرطوس سادس جمادى الأولى ، وتسلمها ساعة وصوله فجعل لحفظها الأمير سابق الدين عثمان بن الداية صاحب شيزر، ثم سار السلطان إلى اللاذقية ووصل إليها رابع عشرين جمادى الأولى، ولها قلعتان ، فحصر القلعتين، وزحف إليها فطلب أهلها الأمان ، فأمنهم وتسلم القلعتين، ولما تسلمها سلمها إلى ابن أخيه الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، فحصنها وعمر قلعتها، وكان تقي الدين عظيم الهمة في تحصين القلاع والغرامة عليها كما فعل بقلعة حماة، ثم ر حل السلطان عن اللاذقية سابع عشرين جمادى الأولى إلى صهيون وحاصرها وضايقها وطلب أهلها الأمان فلم يجبهم إلاّ على أمان أهل القدس فيما يؤدوه، فأجابوا إلى ذلك، وتسلم السلطان قلعة صهيون وسلمها إلى أمير من أصحابه يقال له ناصر الدين منكورس صاحب قلعة أبي قبيس، ثم فرق عسكره في تلك الجبال، فملكوا حصن بلاطنس، وكان الفرنج الذين به قد هربوا وأخلوه وملكوا حصن العيد، وحصن هونين، ثم سار السلطان عن صهيون ثامن جمادى الآخرة ووصل إلى قلعة بكاس فأخلاها أهلها وتحصنوا بقلعة الشغر، فحاصرها السلطان ووجدها منيعة وضايقها، فرمى الله في قلوبهم الرعب، وطلبوا الأمان وتسلمها يوم الجمعة سادس جمادى الآخرة بالأمان، وأرسل السلطان ولده الملك الظاهر غازي ـ صاحب حلب ـ فحصر سرمين

وضايقها واستنزل أهلها على قطيعة قررها عليهم، وهدم الحصن، وعفى أثره، وكان في هذه وفي جميع الحصون المذكورة من المسلمين الجم الغفير، فأطلقوا ، وأعطوا الكسوة والنفقة، ثم سار السلطان من الشغر إلى برزية، ورتب عسكره ثلاث فرق، وداومها بالزحف وملكها بالسيف في السابع والعشرين من جمادى الآخرة، وسبى وقتل من أهلها غالبهم.

قال ابن الأثير في الكامل: كنت مع السلطان في فتحه لهذه البلاد طلباً للغزاة فحكى ذلك عن مشاهدة(١٢).

ثم سار السلطان، ونزل على جسر الحديد ، وهو على العاصي بقرب أنطاكية، فأقام عليه أياما حتى تلاحق به من تأخر من العسكر ، ثم سار إلى دربساك، ونزل عليها ثامن رجب هذه السنة، وحاصرها وضايقها وتسلمها بالأمان على شرط أن لايخرج أحد منها إلا بثيابه فقط، وتسلمها تاسع عشر رجب، ثم سار إلى بغراس وحصرها وتسلمها بالأمان على حكم أمان دربساك، وأرسل بيمند صاحب أنطاكية إلى السلطان يطلب منه الهدنة والصلح، وبذل اطلاق كل أسير عنده، فأجيب إلى ذلك، واصطلحوا ثمانية أشهر، وكان صاحب أنطاكية حينئذ أعظم ملوك الفرنج في هذه البلاد، فإن أهل طرابلس سلموا إليه طرابلس بعد موت القومص صاحبها على ما ذكرناه ، فجعل بيمند صاحب أنطاكية ابنه في طرابلس.

ولما فرغ السلطان من أمر هذه البلاد والهدنة سار إلى حلب ودخلها ثالث شعبان، وسار منها إلى دمشق، وأعطى عماد الدين زنكي دستوراً وكذلك أعطى غيره من العساكر الشرقية ، وجعل طريقه لما رحل من حلب على قبر عمر بن عبد العزيز، فزاره، وزار الشيخ أبا زكريا المغربي، وكان مقيماً هناك، وكان من عباد الله الصلحاء، وله كرامات ظاهرة ، وكان مع السلطان الأمير أبو فليته قاسم بن مهنا الحسني صاحب

مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وشهد معه مشاهده وفتوحاته، وكان السلطان يتبرك برؤيته، ويتيمن بصحبته، ويرجع إلى قوله. ودخل السلطان دمشق في رمضان ، فأشير عليه بتفريق العساكر ليريحوا ويستريحوا، فقال السلطان: العمر قصير والأجل غير مأمون،وكان السلطان لما سار إلى البلاد الشمالية، قد جعل على الكرك وغيرها من يحصرها، وخلّى أخاه العادل بتملك الجهات يباشر ذلك ، فأرسل أهل الكرك يطلبون الآمان، فأمر الملك العادل المباشرين لحصارها بتسلمها فتسلموها، وهي الكرك والشوبك، وما بتلك الجهة من البلاد.

ثم سار السلطان من دمشق المحروسة في منتصف رمضان إلى صفد وحصرها، وتسلمها بالأمان، ثم سار إلى كوكب، وعليها قيماز النجمي يحاصرها، فضايقها السلطان وتسلمها بالأمان في منتصف ذي القعدة ، وسير أهلها إلى صور، وكان اجتماع أهل هذه القلاع في صور من أعظم أسباب الضرر على المسلمين ، ظهر ذلك فيما بعد. ثم سار السلطان إلى القدس فعيد فيه عيد الأضحى، ثم سار إلى عكا فأقام بها حتى انسلخت السنة. وفيها أرسل قزل بن ألدكز يستنجد بالخليفة الامام الناصر على طغريل بن أرسلان بن طغريل بن محمد بن السلطان ملكشاه السلجوقي ويحذره عاقبة طغريل، فأرسل الخليفة عسكراً إلى طغريل ، والتقوا ثامن ربيع الأول هذه السنة قرب همذان، فانهزم عسكر الخليفة ، فغنم طغريل أموالهم وأسر مقدمهم الوزير جلال الدين.

وفي سنة خمس وثمانين

سار السلطان صلاح الدين ، ونزل بمرج عيون، وحضر إليه صاحب شقيف أرنون، وبذل له تسليم الشقيف بعد مدة عينها خديعة منه، فلما بقي ثلاثة أيام استحضره السلطان، وكان اسمه أرناط وقال له في التسليم، فقال: لايوافقني عليه أهلي وأهل الحصن ، فأمسكه السلطان وبعث به إلى دمشق فحبسه.

وفيها كان:

حصار الفرنج عكا

كان قد اجتمع بصور أهل البلاد التي أخذها السلطان بالأمان، فكثر جمعهم حتى صاروا في عدد لايحصى، فأرسلوا إلى البحر يبكون ويستنجدون، وصوروا المسيح ، وصوروا عربي يضرب المسيح وقد أدماه، وقالوا: هذا نبي العرب يضرب المسيح، فخرجت النساء من بيوتهن ووصل من البحر عالم لايحصى كثرة، وساروا من صور إلى عكا، ونازلوها في منتصف رجب هذه السنة، وضايقوا عكا وأحاطوا بسورها من البحر إلى البحر، ولم يبق للمسلمين إليها طريق، فسار السلطان، ونزل قرب الفرنج وقابلهم في مستهل شعبان وباتوا على ذلك، وأصبحوا وحمل تقي الدين عمر صاحب حماة من ميمنة السلطان على الفرنج فأزالهم عن موقفهم والتصق بالسور وانفتح الطريق إلى المدينة، فأدخل السلطان إلى عكا عسكراً نجدة، وكان من جملتهم أبو الهيجاء السمين، وبقي المسلمون يغادون القتال ويراوحونه إلى عشرين شعبان، ثم كان بين المسلمين وبينهم الوقعة العظيمة، فإن الفرنج اجتمعوا وحملوا على السلطان في القلب، فأزالوه عن موقفه، وأخذ الفرنج يقتلون المسلمين إلى أن بلغوا خيمة السلطان، فانحاز السلطان هو وخاصته إلى جانب، وانقطع مدد الفرنج وانشغلوا بقتال الميمنة ، فحمل السلطان على الفرنج الذين خرقوا الميمنة ، وعطف الجيش عليهم فأفنوهم قتلاً، فقتل في ذلك الوقت من الفرنج قريب الثلاثين ألفاً، ووصل المنهزمون من المسلمين بعضهم إلى طبرية ، وبعضهم إلى دمشق،وجافت الأرض بعد هذه الوقعة ، ولحق السلطان مرض القولنج، فأشار عليه الأمراء بالانتقال من ذلك الموضع فوافقهم، ورحل عن عكا رابع عشر رمضان هذه السنة إلى

الخروبة، فلما رحل تمكن الفرنج من حصار عكا وانبسطوا في تلك الأرض، ووصل اسطول المسلمين في البحر مع حسام الدين لؤلؤ الحاجب، فظفر باسطول الفرنج وأخذه، وأخذ من الفرنج أموالاً عظيمة، ودخل بالكل إلى عكا، فقوى به قلوب المسلمين، وكذلك وصل الملك العادل بعسكر مصر بالسلاح إلى أخيه السلطان، فقويت قلوب المسلمين بوصوله.

وفي سنة ست وثمانين

بعد دخول صفر رحل السلطان من الخروبة، وعاد إلى قتال الفرنج بعكا، وكان الفرنج قد عملوا قرب سور عكا ثلاثة أبرجة، طول البرج ستون ذراعاً جلبوا خشبها من جزائر البحر وعملوها طبقات ، وشحنوها بالسلاح ولبسوها جلود البقر والطين بالخل لئلا تعمل فيها النار، فتحيل المسلمون وأحرقوا البرج الأول، فاحترق بمن فيه من الرجال والسلاح، ثم أحرقوا الثاني والثالث، وانبسطت نفوس المسلمين لذلك بعد الكآبة ، ووصلت إلى السلطان عساكر البلاد.

وبلغ المسلمين وصول ملك الألمان ، وكان قد سار من بلاد وراء القسطنطينية بمائة ألف مقاتل، واغتم المسلمون لذلك وأيسوا من الشام بالكلية ، فسلط الله على الألمان الغلاء والوباء، فهلك أكثرهم في الطريق، ولما وصل ملكهم إلى بلاد الأرمن نزل في نهر هناك يغتسل، فهلك غرقاً، وأقاموا ابنه مقامه، فرجع من عسكره طائفة إلى بلادهم، وطائفة اختارت أخا ابن الملك المذكور، فرجعوا مع ابن الملك ، ووصل مع ابن الملك المتولي أولاً إلى فرنج عكا ألف مقاتل ،وكفى الله المسلمين شرهم.

وبقي السلطان وفرنج عكا يتناوشون القتال.إلى العشرين من جمادى

الآخرة ، فخرجت الفرنج بالفارس والراجل من خنادقهم وأزالوا الملك العادل عن موقفه، وكان معه عسكر مصر، فعطف عليهم المسلمون وقتلوا من الفرنج قريب عشرة آلاف ، فرجعوا إلى خنادقهم، وحصل للسلطان مغص، فانقطع في خيمة صغيرة ولولا ذلك كانت الفيصلة ، ولكن إ ذا أراد الله أمراً فلا مرد له.

وفيها قوي الشتاء واشتدت الرياح، وأرسل الفرنج مراكبهم إلى صور خوفاً أن تنكسر ، فانفتحت الطريق إلى عكا في البحر ، وأرسل السلطان إليها البدل، فكان العسكر الذين خرجوا منها أضعاف الواصلين إليها، فحصل التفريط بذلك.

وفيها ثامن شوال توفي زين الدين يوسف بن زين الدين علي كوجك صاحب إربل، وكان مع السلطان بعسكره، ولما مات أقطع السلطان إربل أخاه مظفر الدين كوكبوري بن زين الدين علي كوجك، وأضاف إليه شهرزور وأعمالها، وارتجع ما كان بيد المظفر وهو : حران، والرها، وسار مظفر الدين إلى إربل وملكها.

وفيها استولى الخليفة الناصر على حديثه عانة، بعد أن حصرها مدة.

وفيها أقطع السلطان ما كان بيد مظفر الدين وهو : حران والرها وسميساط الملك المظفر تقي الدين عمر زيادة على ما بيده، وهو ميافارقين، ومن الشام: حماه والمعرة، وسلمية، ومنبج، وقلعة نجم، وجبلة، واللاذقية وبلاطنس، وبكسرائيل.

- ١٠٧١٦ -

وفي سنة سبع وثمانين
كان استيلاء الفرنج على عكا

واستمر حصار الفرنج لعكا إلى هذه السنة، وكانوا قد أحاطوا بها من البحر إلى البحر، وحفروا عليها خندقاً، فلم يتمكن السلطان من الوصول إليهم، وكانوا محاصرين لعكا وهم كالمحصورين من خارج بالسلطان، واشتد حصارهم لعكا وطال، وضعف من بها عن حفظ البلد، وعجز السلطان صلاح الدين عن دفع العدو عنهم، فخرج الأمير سيف الدين علي بن أحمد المشطوب، وطلب الأمان من الفرنج على مال وأسرى يقومون به للفرنج، فأجابوهم إلى ذلك، وصعدت أعلام الفرنج على عكا يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة وقت الظهر، واستولوا على البلد بما فيه ، وحبسوا المسلمين في أماكن من البلد، وقالوا إنما نحبسهم ليقوموا بالمال والأسرى وصليب الصلبوت، وكتبوا إلى السلطان صلاح الدين بذلك، فحصل ما أمكن تحصيله من ذلك، وطلب منهم اطلاق المسلمين فلم يجيبوا إلى ذلك.

فعلم منهم الغدر، واستمر أسرى المسلمين بها، ثم قتل الفرنج من المسلمين جماعة كثيرة، واستمروا بالباقين في الأسر، وبعد استيلاء الفرنج على عكا وتقرير أمرها ، رحلوا عنها مستهل شعبان نحو قيسارية، والمسلمون يسايرونهم ويتخطفون منهم، ثم ساروا من قيسارية إلى أرسوف، ووقع بينهم وبين المسلمين مصاف أزالوا المسلمين عن مواقفهم، ووصلوا إلى سوق المسلمين، فقتلوا خلقاً كثيراً أكثرهم من السوقة، ثم سار الفرنج إلى يافا وقد أخلاها المسلمون فملكوها، ثم رأى السلطان تخريب عسقلان مصلحة لئلا يحصل لها ما حصل لعكا، فسار إليها واخلاها، ورتب الحجارين في تعليق أسوارها وتخريبها، فدكها إلى الأرض، فلما فرغ من تخريب عسقلان رحل عنها ثاني شهر رمضان إلى

الرملة فخرب حصنها، وخرب كنيسة لـدّ،ثم سار إلى القدس وقرر أموره، وعاد إلى مخيمـه ثامـن رمضان، ثم تـراسل الفـرنج والسلطـان في الصلح على أن يتزوج الملك العـادل أخو السلطان بأخت ملـك الانكتار ويكون للملك العـادل القدس ولامـرأته عكـا، فحضر القسيسون وأنكـروا عليها ذلك إلا أن يتنصر الملك العادل، فلم يتفق بينهـم حال، ثم رحل الفرنج مـن يافـا إلى الرملـة ثامـن ذي القعدة، وبقـي كل يـوم يقع بينهـم وبين المسلمين مناوشات ، ولقوا من ذلك شدة شديدة.

وأقبـل الشتاء وحـالت الأوحـال بينهم، ولما رأى السلطـان ذلك وقـد ضجرت العسـاكر أعطـاهم الـدستور، وسـار إلى القدس لتسـع بقين من ذي القعدة، ونزل داخل البلد واستراحوا ممـا كانوا فيه، وأخذ السلطان في تعمير القـدس وتحصينه، وأمـر العسكر بنقـل الحجـارة، وكان السلطـان ينقـل الحجارة بنفسـه على فرسـه ليقتدي بـه العسكر، فكـان يجتمع عنـد العمالين في اليوم الواحد ما يكفيهم أيام.

وفيها كانت وفاة الملك المظفر تقي الـدين عمر، وكان تقي الدين عمر ابن شاهنشاه بن أيوب قد سـار إلى البلاد المرجعة من كوكبوري التي زاده إياها عمـه السلطان من وراء الفرات، وهي حران، وغيرها فامتدت عين الملك المظفر إلى بـلاد مجاوريه، واستولى على السويداء وحانـي وأتقع مع بكتمر صاحـب أخلاط، فكسره وحصره في أخلاط، وتملك معظـم البلاد ثم رحـل عنها ونازل مـلازكرد وهي لبكتمـر وضايقهـا، وكـان في صحبته ولده الملك المنصـور محمد فعرض للملك المظفـر مرض شديد وتـزايد به حتى تـوفي يوم الجمعة لاحدى عشر ليلـة بقيت من رمضان هـذه السنة، فأخفى ولده المنصور وفاته، ورحل عن ملازكرد، ووصل به إلى حماه ودفنه بظـاهرهـا، وبنى إلى جـانب التربـة مدرسـة وهي مشهـورة هناك، وكـان المظفر شجـاعاً شـديد البأس، ركنـاً عظيماً من أركـان بيت أيـوب، وكان عنده فضل الأدب، ولـه شعر حسن، واتفق أن في ليلة الجمعـة التي توفي

فيها الملك المظفر توفي حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين، وأمه ست الشام بنت أيوب أخت السلطان، فأصيب السلطان في تاريخ واحد بابن أخيه وابن أخته.

ولما مات الملك المظفر راسل ابنه الملك المنصور السلطان صلاح الدين ، واشترط شروطاً نسبه السلطان فيها إلى العصيان، فكاد أمره أن يضطرب بالكلية ، فراسل الملك المنصور الملك العادل أخو السلطان في استعطاف خاطر السلطان، فما برح الملك العادل بأخيه السلطان يراجعه ويشفع في الملك المنصور حتى أجابه، وقرر للملك المنصور : حماه، وسلمية، والمعرة، ومنبج، وقلعة نجم، واسترجع منه البلاد الشرقية ، وأقطعها أخاه الملك العادل بعد أن شرط السلطان على الملك العادل أن ينزل عن كل ماله من الإقطاع بالشام خلا الكرك والشوبك والصلت والبلقاء، ونصف خاصه بمصر، وأن يكون عليه في كل سنة خمسة آلاف غرارة تحمل من الصلت والبلقاء إلى القدس، ولما استقر ذلك سار الملك العادل إلى البلاد الشرقية، وقرر أمورها، وعاد إلى خدمة السلطان في آخرة جمادى الآخرة من السنة المقابلة، أعني سنة ثمان وثمانين، ولما قدم الملك العادل على السلطان كان الملك المنصور صاحب حماه صحبته، فلما رأى السلطان الملك المنصور بن تقي الدين نهض واعتنقه وغشيه البكاء، وأنزله في مقدمة عسكره.

وفيها في شعبان قتل قرا أرسلان عثمان بن ألدكز ملك: أذربيجان، وهمذان، والري، وأصفهان بعد أخيه محمد البهلوان ، وكان قوي عليه السلطان طغريل السلجوقي، وهزم عسكر بغداد كما تقدم ذكره، ثم إن قزل أرسلان تغلب واعتقل طغريل بن أرسلان شاه في بعض البلاد، وسار قزل أرسلان بعد ذلك إلى أصبهان وتعصب على الشفعوية، وأخذ جماعة من أعيانهم فصلبهم، وعاد إلى همذان وخطب لنفسه بالسلطنة،

ودخل لينام على فراشه، وتفرق عنه أصحابه، فدخل عليه من قتله على فراشه ولم يعرف من قتله.

وفيها قدم معز الدين قيصر شاه بن قليج أرسلان صاحب بلاد الروم إلى السلطان صلاح الدين، وسببه أن والده فرق مملكته على أولاده، وأعطى ولده هذا ملطيه، ثم تغلب بعض أخوته على أبيه قليج أرسلان وألزمه بأخذ ملطية من أخيه المذكور، فخاف من ذلك وسار إلى السلطان مستجيراً، فأكرمه السلطان وزوجه بابنة أخيه الملك العادل، وعاد معز الدين إلى ملطية في ذي القعدة وقد انقطعت اطماع أخيه منه.

قال ابن الأثير: لما ركب السلطان صلاح الدين ليودع معز الدين قيصر شاه المذكور ترجل معز الدين له فترجل السلطان، فلما ركب السلطان عضده معز الدين وركبه، وكان علاء الدين بن عز الدين مسعود صاحب الموصل مع السلطان إذ ذاك فسوى ثياب السلطان، فقال بعض الحاضرين: ما بقيت تبالي يابن أيوب بأي موتة تموت، يركبك ملك سلجوقي، ويصلح ثيابك ابن أتابك زنكي[١٣].

وفي سنة ثمان وثمانين

سار الفرنج إلى عسقلان وشرعوا في عمارتها والسلطان في القدس.

وفيها قتل المركيس صاحب صور، قتله الباطنية، وكانوا قد دخلوا في زي الرهبان إلى صور.

وفيها عقدت الهدنة مع الفرنج، وعاد السلطان إلى دمشق، وكان سبب ذلك أن ملك الانكتار مرض فطال عليه البيكار، فكاتب الملك العادل يسأله الدخول على السلطان في الصلح، فلم يجب السلطان إلى الصلح ثم اتفق الأمراء عليه لطول البيكار، وضجر العسكر، فأجاب

السلطان واستقر أمر الهدنة يوم السبت ثامن عشر شعبان، وتحالفوا على ذلك يوم الأربعاء الثاني والعشرين من شعبان، ولم يحلف ملك الانكتار بل أخذوا يده وعاهدوه، واعتذر بأن الملوك لايحلفون، وقنع بذلك السلطان، وحلف الكندهري، ابن أخته، وخليفته في الساحل، وكذلك حلف غيره من عظماء الفرنج.

ووصل ابن الهنفري وباليان إلى خدمة السلطان ومعهما جماعة من مقدمي الفرنج، وأخذوا يد السلطان على الصلح، واستحلفوا الملك العادل أخا السلطان والأفضل والظاهر ابني السلطان، والملك المنصور محمد ابن تقي الدين عمر صاحب حماه، والملك المجاهد شيركوه صاحب حمص، والأمجد بهرام شاه بن فرخشاه صاحب بعلبك، والأمير بدر الدين دلدرم صاحب تل باشر والأمير سابق الدين عثمان بن الداية صاحب شيزر، والأمير سيف الدين علي بن أحمد المشطوب، وغيرهم من المقدمين الكبار، وعقدت هدنة عامة في البر والبحر، وجعلت مدتها ثلاث سنين وثلاثة أشهر أولها أيلول الموافق لحادي عشرين من شعبان، وكانت الهدنة على أن يستقر بيد الفرنج يافا وعملها، وقيسارية وأرسوف وحيفا وعكا بأعمالهم وأن تكون عسقلان خراباً، وشرط السلطان دخول صاحب أنطاكية وطرابلس في عقد هدنتهم، وأن تكون لد والرملة مناصفة بينهم وبين المسلمين، فاستقرت القاعدة على ذلك، ورحل السلطان إلى القدس في رابع شهر رمضان، وتفقد أحواله وأمر بتشييد أسواره وزاد في وقف المدرسة التي عملها بالقدس وهذه المدرسة كانت قبل الاسلام تعرف بصندحنه يذكرون أن فيها قبر حنّه أم مريم، ثم صارت في الإسلام دار علم قبل أن تملك الفرنج القدس،ثم لما ملك الفرنج القدس سنة اثنتين وتسعين وأربع مائة أعادوها كنيسة كما كانت قبل الإسلام، فلما فتح السلطان القدس أعادها مدرسة، وفوض تدريسها إلى القاضي بهاء الدين بن شداد، ولما استقر أمر الهدنة أرسل السلطان مائة حجار لتخريب عسقلان، وأن يخرج من بها من الفرنج، وعزم على

الحج والإحرام من القدس، وكتب إلى أخيه سيف الإسلام صاحب اليمن بذلك، ثم قيده الأمراء وقالوا لاتعتمد على هدنة الفرنج خوفاً من غدرهم، فانتقض عزمه، ورحل عن القدس لخمس مضين من شوال إلى نابلس، ثم إلى بيسان، ثم إلى كوكب، وبات بقلعتها ، ثم رحل إلى طبرية ولقيه بها الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدي، وقد خلص من الأسر، وكان قد أسر بعكا لما أخذها الفرنج مع من أسر، فسار قراقوش مع السلطان إلى دمشق، ثم إلى مصر، ثم إلى بيروت، ووصل إلى خدمته بيمند صاحب أنطاكية يوم السبت حادي وعشرين شوال، فأكرمه السلطان، وفارقه غد ذلك اليوم، وسار السلطان إلى دمشق، ودخلها يوم الأربعاء لخمس بقين من شوال، وفرح الناس به لأن غيبته عنهم كانت أربع سنين ، وأقام العدل والإحسان بدمشق وأعطى العساكر دستوراً، فودعه الملك الظاهر وداعاً لالقاء بعده، وسار إلى حلب وبقي مع السلطان بدمشق ولده الملك الأفضل ، والقاضي الفاضل، وكان الملك العادل قد أستأذن السلطان وسار من القدس إلى الكرك لينظر في مصالحه، ثم عاد الملك العادل إلى دمشق طالباً الديار الشرقية التي صارت له بعد تقي الدين عمر، فوصل إلى دمشق حادي عشرين ذي القعدة ، وخرج السلطان إلى لقائه، وفيها وقف السلطان ثلث نابلس على مصالح القدس، وأقطع الباقي الأمير عماد الدين أحمد ابن سيف الدين علي بن المشطوب وأميرين معه وذلك بعد وفاة سيف الدين علي ابن أحمد المشطوب.

وفيها توفي السلطان عز الدين قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان بن قطلومش بن أرسلان يبغو بن سلجوق، وكان ملكه في سنة إحدى وخمسين وخمسمائة، وكان ذا سياسة حسنة وهيبة عظيمة وعدل وافر، وغزوات كثيرة، وكان له عشر بنين وقد ولى كل واحد منهم قطراً من بلاد الروم، وأكبرهم قطب الدين ملكشاه وكان أعطاه أبوه سيواس فسولت له نفسه القبض على أبيه وأخوته والإنفراد

بالسلطنة، وساعده على ذلك صاحب أرزنكان، فسار قطب الدين ملكشاه وهجم على والده قليج أرسلان بمدينة قونية وقبض عليه، وقال لوالده وهو في قبضته أنا بين يديك أنفذ أوامرك ، ثم إنه أشهد على والده أنه قد جعله ولي عهده، ثم مضى ملكشاه إلى حرب أخيه نور الدين سلطان شاه صاحب قيسارية ووالده في القبضة معه، وهو يظهر أن ما يفعله إنما هو بأمر والده،فخرج عسكر قيسارية لقتاله، فوجد أبوه عز الدين قليج أرسلان عند اشتغال العسكر بالقتال فرصة فهرب إلى ابنه سلطان شاه صاحب قيسارية فأكرمه وعظمه كما يجب عليه، فرجع قطب الدين ملكشاه إلى قونية وخطب لنفسه بالسلطنة، وبقي أبوه قليج أرسلان يتردد في بلاده بين أولاده كلما ضجر منه واحد منهم ينتقل إلى الآخر حتى حصل عند ولده غياث الدين كيخسرو صاحب برجلو فقوى أباه قليج أرسلان وأعطاه وجمع له وحشد وسار إلى قونية وملكها وأخذها من ابنه ملكشاه، ثم سار إلى أقصرا فاتفق أن عز الدين قليج أرسلان مات في التاريخ المذكور فأخذه ولده كيخسرو وعاد به إلى قونية فدفنه بها، وأثبت أنه ولي عهد أبيه قليج أرسلان، ثم إن ركن الدين سليمان أخا غياث الدين كيخسرو قوي على أخيه كيخسرو وأخذ منه قونية فهرب كيخسرو إلى الشام مستجيراً بالملك الظاهر صاحب حلب، ثم مات ركن الدين سليمان سنة ستمائة وملك بعده ولده قليج أرسلان ، فرجع غياث الدين كيخسرو إلى بلاد الروم وأزال ملك قليج أرسلان بن سليمان، وملك بلاد الروم جميعها واستقرت سلطنته ببلاد الروم وبقي كذلك إلى أن قتل وملك بعده ابنه عز الدين كيكاوس، ثم توفي كيكاوس.وملك بعده أخوه علاء الدين كيقباذ، وتوفي علاء الدين كيقباذ سنة أربع وثلاثين وستمائة وملك بعده ولده غياث الدين كيخسرو بن كيقباذ وكسره التتر سنة أربع وأربعين وستمائة وتضعضع حينئذ ملك السلاجقة ببلاد الروم، ثم مات كيخسرو بن كيقباذ بن قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان بن قطلومش بن أرسلان يبغو بن سلجوق، وانقضى بموت كيخسرو المذكور ملك سلاطين بلاد الروم في

الحقيقة ، لأن من صار بعد لم يكن له في السلطنة غير مجرد الاسم وخلف كيخسرو المذكور صبيين هما: ركن الدين، وعز الدين، فملكا بعده معاً مدة، ثم انفرد ركن الدين بالسلطنة وهرب أخوه عز الدين إلى قسطنطينية، وتغلب على ركن الدين معين الدولة البرواناه، والبلاد في الحقيقة للتتر،ثم إن البرواناه قتل ركن الدين، وأقام ابناً لركن الدين يخطب له بالسلطنة والحكم للبرواناه وهو نائب التتر على ما سنذكره إن شاء الله تعالى.

وفيها غزا شهاب الدين الغوري الهند فغنم، وقتل مالا يحصى، وفيها خرج السلطان طغريل بن أرسلان بن طغريل من الحبس بعد قتل قزل أرسلان بن ألدكز، وكان قزل قد اعتقله حسبما تقدم ذكره في سنة تسع وثمانين وخمسمائة.

وفي سنة تسع وثمانين

كانت وفاة السلطان الملك الناصر صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن نجم الدين أيوب تغمده الله برحمته.

دخلت هذه السنة والسلطان بدمشق على أجمل المسرة، وخرج إلى شرقي دمشق متصيداً وغاب خمسة عشر يوماً وصحبته أخوه الملك العادل، ثم عاد إلى دمشق وودعه الملك العادل وداعاً لا لقاء بعده، وسار إلى الكرك، وأقام فيه حتى بلغه وفاة السلطان، وأقام السلطان بدمشق وركب يوم الجمعة خامس عشر صفر وتلقى الحجاج وكانت عادته لايركب إلاّ وعليه كزاغند، فركب ذلك اليوم وقد اجتمع بسبب اجتماع الحجاج وركوبه عالم كثير، ولم يلبس الكزاغند، ثم ذكره وهو راكب فطلبه فلم يجده لأنه لم يحمل معه ، ولما التقى الحجاج استعبرت عيناه كيف فاته الحج، ووصل إليه مع الحجاج ولد أخيه سيف الإسلام صاحب اليمن، ثم عاد السلطان بين البساتين على جهة المنيبع، ودخل إلى القلعة على الجسر وكانت هذه آخر ركباته، فلحقه ليلة السبت السادس عشر من صفر كسل عظيم وغشية نصف الليل حمى صفروية ، وأخذ المرض في التزايد، وفصده الأطباء في الرابع فاشتد مرضه وحدث به في التاسع رعشة وغاب ذهنه وامتنع من تناول المشروب واشتد الارجاف في البلد وغشي الناس من الحزن والبكاء عليه ما لا يمكن حكايته، وحقن في العاشر حقنتين فاستراح بدنه وتناول من ماء الشعير مقداراً صالحاً، ثم لحقه عرق عظيم حتى نفذ من الفراش، واشتد المرض ليلة ثاني عشر مرضه وهي ليلة السابع والعشرين من صفر وحضر عنده الشيخ أبو جعفر إمام الكلاسة، ليبيت عنده في القلعة بحيث إن احتضر في الليل لقنه الشهادة، وتوفي السلطان في الليلة المذكورة، وهي المسفرة عن نهار الأربعاء ثامن وعشرين صفر بعد صلاة الصبح سنة تسع وثمانين، وبادر القاضي الفاضل بعد صلاة الصبح فحضر وفاته، ووصل

القاضي بهاء الدين بن شداد بعد موته وغسله الخطيب الدولعي بدمشق، وأخرج بعد صلاة الظهر من نهار الأربعاء المذكور في تابوت مسجى بثوب، وجميع ما احتاجه من ثياب تكفينه أحضرها القاضي الفاضل من جهات حل عرفها، وصلى عليه الناس، ودفن بقلعة دمشق في الدار التي كان مريضاً فيها، وكان نزوله إلى قبره بعد صلاة العصر من النهار المذكور، وكان الملك الأفضل ابنه حلف الناس له عندما اشتد بوالده المرض، وجلس للعزاء في القلعة، وأرسل الملك الأفضل الكتب بوفاة والده إلى أخيه الملك العزيز عثمان بمصر، وإلى أخيه الملك الظاهر بحلب، وإلى عمه الملك العادل بالكرك، ثم إن الأفضل عمل لوالده تربة قرب الجامع، وكانت داراً لرجل صالح ، ونقل إليها السلطان يوم عاشوراء سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة، ومشى الأفضل بين يدي تابوته، وأخرج من باب القلعة على دار الحديث إلى باب البريد وأدخل الجامع ووضع قدام النسر، وصلى عليه القاضي محيي الدين ابن الزكي، ثم دفن وجلس ابنه الأفضل في الجامع ثلاثة أيام للعزاء، وانفقت ست الشام بنت أيوب أخت السلطان في هذه النوبة أموالاً عظيمة وكان مولد السلطان صلاح الدين بتكريت في شهور سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة، فكان عمره سبعاً وخمسين سنة وكان مدة ملكه بالديار المصرية نحو أربع وعشرين سنة، وملكه للشام قريباً من تسع عشرة سنة، وخلف سبعة عشر ولداً ذكراً وبنتاً واحدة ، وكان أكبر أولاده الملك الأفضل نور الدين علي، ولد بمصر سنة خمس وستين وخمسمائة ، وكان العزيز عثمان أصغر منه بنحو سنتين.وكان الظاهر صاحب حلب أصغر منهما، وبقيت البنت حتى تزوجها ابن عمها الملك الكامل صاحب مصر ولم يخلف السلطان صلاح الدين في خزانته غير سبعة وأربعين درهماً وجرم واحد صوري، وهذا من رجل له البلاد المصرية والشام واليمن والشرق دليل قاطع على فرط كرمه، ولم يخلف داراً ولا عقاراً.

قال العماد الكاتب: حسبت ما أطلقه السلطان في مدة مقامه بمرج

عكا من خيل عراب وأكاديش، فكان اثني عشر ألف رأس وذلك غير ما أطلقه من أثمان الخيل المصابة في القتال، ولم يكن له فرس يركبه إلا وهو موهوب أو موعود به، ولم يؤخر صلاة عن وقتها ولا صلى إلاّ في جماعة، وكان إذا عزم على أمر توكل على الله ولا يفضل يوم على يوم وكان كثير سماع الحديث النبوي ، قرأ مختصراً في الفقه تصنيف سليم الرازي، وكان حسن الخلق، صبوراً على المكاره كثير التغافل عن ذنوب أصحابه يسمع من أحدهم ما يكره ولا يعلمه بذلك ولا يتغير عليه، وكان يوماً جالساً فرمى بعض المماليك بعضاً بسر موجة فأخطأته ووصلت إلى السلطان فأخطأته ووقعت قريباً منه، فالتفت إلى الجهة الأخرى ليتغافل عنها، وكان طاهر المجلس لايذكر أحداً في مجلسه إلا بخير، وطاهر اللسان فلا يولغ بشتم أحد قط.

قال العماد الكاتب: مات بموت السلطان الرجال، وفات بفواته الافضال، وغاضت الأيادي وفاضت الأعادي، وانقطعت الأرزاق وادلهمت الآفاق، وفجع الزمان بواحده وسلطانه ورزىء الإسلام بمسند أركانه.

ولما توفي السلطان الملك الناصر صلاح الدين استقر في الملك بدمشق وبلادها المنسوبة إليها ولده الأفضل نور الدين علي، وبالديار المصرية الملك العزيز عماد الدين عثمان، وبحلب الملك الظاهر عماد الدين غازي وبالكرك والشوبك والبلاد الشرقية الملك العادل سيف الدين أبو بكر ابن أيوب، وحماه وسلمية والمعرة ومنبج وقلعة نجم الملك المنصور ناصر الدين محمد بن الملك المظفر تقي الدين عمر، وببعلبك الملك الأمجد مجد الدين بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب، وبحمص والرحبة وتدمر الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه ابن شاذي، وبيد الملك الظافر خضر بن السلطان صلاح الدين بصرى وهو في خدمة أخيه الأفضل، وبيد جماعة من أمراء الدولة بلاد وحصون

منهم سابق الدين عثمان ابن الداية بيده شيزر، وأبو قبيس، وناصر الدين منكورس بن خمارتكين بيده صهيون وحصن برزية ، وبدر الدين دلدرم ابن بهاء الدين ياروق بيده تل باشر،وعز الدين سامة بيبده كوكب وعجلون، وعز الدين ابراهيم بن شمس الدين بن المقدم بيده بعرين وكفر طاب وفامية.

والملك الأفضل هو الأكبر من أولاد السلطان المعهود إليه بالسلطنة، واستوزر الملك الأفضل ضياء الدين نصر الله بن محمد بن الأثير مصنف المثل السائر، وهو أخو عز الدين بن الأثير مصنف الكامل، فحسن للملك الأفضل طرد أمراء أبيه، ففارقوه إلى أخويه العزيز والظاهر.

قال العماد الكاتب: وتفرد الوزير بوزره، ومد الجزري في جزره، ولما اجتمعت الأمراء بمصر حسنوا للملك العزيز الإنفراد بالسلطنة، ووقعوا في أخيه الأفضل، فمال إلى ذلك وحصلت الوحشة بين الأخوين الأفضل والعزيز.

وفيها بعد موت السلطان قدم الملك العال من الكرك إلى دمشق وأقام فيها وظيفة العزاء على أخيه، ثم توجه إلى بلاده التي هي وراء الفرات.

وفي هذه السنة لما مات السلطان صلاح الدين كاتب عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي، صاحب الموصل، ملوك البلاد المجاورة للموصل يستنجدهم، واتفق مع أخيه عماد الدين زنكي بن مودود صاحب سنجار، وسار إلى حران وغيرها، فلحق عز الدين مسعود إسهال قوي وضعف فنزل العسكر مع أخيه عماد الدين وعاد إلى الموصل وصحبته مجاهد الدين قيماز، فحلف العسكر عز الدين لابنه أرسلان شاه بن مسعود، وقوي بعز الدين مسعود المرض، وتوفي في

السابع والعشرين من شعبان هذه السنة، وكانت المدة ما بين وفاته ووفاة السلطان صلاح الدين نصف سنة، ومدة ملك عز الدين الموصل ثلاث عشرة سنة وتسعة أشهر، وكان ديناً خيراً عادلاً كثير الإحسان أسمر مليح الوجه خفيف العارضين يشبه جده عماد الدين زنكي بن آق سنقر، واستقر في ملك الموصل بعده ولده أرسلان شاه، وكان القائم بأمره مجاهد الدين قيماز، وفي هذه السنة أول جمادى الأولى قتل سيف الدين بكتمر صاحب خلاط، وبين قتله وموت السلطان شهران، ولما بلغ بكتمر موت السلطان صلاح الدين أسرف في إظهار الشماتة بموت السلطان، وضرب البشائر ببلاده، وعمل تختاً وجلس عليه، وسمى نفسه السلطان المعظم[١٤] وكان اسمه بكتمر فسمى نفسه عبد العزيز وكأن قد فعل ذلك، فلم يمهله الله تعالى، وكان هذا بكتمر من مماليك ظهير الدين شاه أرمن، وكان له حينئذ خشداش اسمه هزار دينارى، واسم هزار دينارى آق سنقر، ولقبه بدر الدين جلبه تاجر جرجاني اسمه علي إلى خلاط، فاشتراه منه شاه أرمن ابن سكمان بن ابراهيم، وأعجب به شاه أرمن فجعله ساقياً، ولقبه هزار دينارى، وبقي على ذلك برهة من الزمان، فلما تولى بكتمر على مملكة خلاط بقي هذا من أكبر الأمراء وتزوج عينا خاتون بنت بكتمر، وخلف بكتمر ولداً، وأخذ هزار دينارى ولد بكتمر وأمه واعتقلهما بقلعة أرزاس بموش، وعمر ابن بكتمر سبع سنين، واستقر بدر الدين آق سنقر هزار دينارى في مملكة خلاط حتى توفي في سنة أربع وتسعين وخمسمائة على ما سنذكره إن شاء الله تعالى.

وفيها شتى شهاب الدين الغوري في نوشاوور، وجهز مملوكه أيبك في عساكر كثيرة إلى بلاد الهند ففتح وغنم وعاد منصوراً.

وفيها توفي سلطان شاه بن أرسلان ابن خوارزم شاه أطز بن محمد بن أنوشتكين، وكان قد ملك خراسان، ولما مات انفرد أخوه تكش بالمملكة وقد تقدم ذكرهما في سنة ثمان وستين وخمسمائة .

وفيها مات الأمير داود بن عيسى بن محمد بن أبي هاشم أمير مكة، ومازالت إمارة مكة له تارة ولأخيه مكثر تارة حتى مات.

وفي سنة تسعين وخمسمائة

قتل طغريل بن أرسلان بن طغريل بن السلطان محمد بن ملك شاه ابن ألب أرسلان بن جغري بك داود بن ميكائيل بن سلجوق، وكان قد حبسه قزل أرسلان بن ألدكز، وخرج طغريل من الحبس سنة ثمان وثمانين وخمسمائة، وملك همذان وغيرها، وجرى بينه وبين مظفر الدين أزبك بن محمد البهلوان بن ألدكز حرب وقيل بل هو قطلغ اينانج أخو أزبك المذكور، فانهزم ابن البهلوان، ثم إن البهلوان بعد هزيمته استنجد بخوارزم شاه علاء الدين تكش، وخاف منه فلم يجتمع بخوارزم شاه تكش، وملك الري وذلك سنة ثمان وثمانين وبلغ تكش أن أخاه سلطان شاه قصد خوارزم فصالح طغريل السلجوقي، وعاد تكش إلى خوارزم، وبقي الأمر كذلك حتى مات سلطان شاه سنة تسع وثمانين وتسلم تكش مملكة أخيه سلطان شاه وخزائنه، وولى ابنه محمد بن تكش نيسابور، وولى ابنه الأكبر ملكشاه مرو،ولما دخلت سنة تسعين سار تكش ليحارب طغريل السلجوقي، فسار طغريل للقائه قبل اجتماع عسكره ، والتقى العسكران بالقرب من الري، وحمل طغريل بنفسه فقتل وكان قتله في رابع وعشرين ربيع الأول هذه السنة ، وحمل رأس طغريل إلى تكش، فأرسل إلى بغداد فنصب بها عدة أيام، وسار تكش فملك همذان وتلك البلاد جميعها، وسلم بعضها إلى ابن البهلوان، وأقطع الباقي لمماليكه ورجع تكش إلى خوارزم، وهذا طغريل هو آخر من ملك بلاد العجم من السلاطين السلجوقية، وقد تقدم ذكر ابتداء دولة السلجوقية في سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة، وأول من ملك منهم العراق وأزال دولة بني بويه طغرلبك بن مكائيل بن سلجوق، ثم ملك بعده ألب أرسلان بن جغري بك داود بن مكائيل، ثم ابنه ملكشاه بن ألب أرسلان ثم ابنه

محمود بن ملكشاه، وكان طفلاً فقام بتدبير الدولة والدته تركان خاتون، ومات محمود وهو ابن سبع سنين وملك أخوه بركياروق ابن ملكشاه، ثم أخوه محمد بن ملكشاه، ثم ابنه محمود بن محمد، ثم ابنه داود بن محمد مدة يسيرة، ثم عمه طغر لبك بن محمد ثم أخوه مسعود بن محمد، ثم أخيه ملكشاه بن محمود بن محمد أياماً يسيرة، ثم أخوه محمد بن محمود، ثم بعد محمد المذكور اختلفت العساكر، وقام من بني سلجوق ثلاثة أحدهم ملكشاه بن محمود، أخو محمد المذكور، والثاني سليمان شاه بن محمد بن السلطان ملكشاه الأكبر، وهو عم محمد المذكور، والثالث أرسلان شاه بن طغريل بن محمد بن السلطان ملكشاه، وكان ألدكز متزوجاً بأم أرسلان شاه المذكور، فقوي عليهما سليمان شاه واستقر في همذان سنة خمس وخمسين وخمسمائة، ثم قبض سليمان شاه وقتل وسم ملكشاه بن محمود ومات بأصفهان في سنة خمس وخمسين وخمسمائة، وانفرد أرسلان شاه بن طغريل ربيب ألدكز على السلطنة، ثم ملك ابنه طغريل بن أرسلان شاه بن طغريل في سنة ست وثمانين وخمسمائة، وجرى له ما ذكرناه حتى قتل تكش في هذه السنة ، أعني سنة تسعين وخمسمائة، وانقرضت به دولة السلجوقية من تلك البلاد.

وفيها أرسل الخليفة الناصر عسكراً مع وزيره مؤيد الدين محمد بن علي المعروف بابن القصاب إلى خوزستان وهي بلاد شملة وأولاده من بعده ، وكان قد مات صاحبها ابن شملة، واختلفت أولاده فوصل عسكر الخليفة إلى خوزستان وملكوا مدينة تستر في محرم سنة إحدى وتسعين وغيرها من البلاد، وملكوا قلعة الناظر وقلعة كاكرد وقلعة الأموج وغيرها من البلاد والحصون، وأنفذوا بني شملة أصحاب خوزستان إلى بغداد (١٥).

وفيها أعني سنة تسعين استحكمت الوحشة بين الأخوين العزيز والأفضل ابني السلطان صلاح الدين، وسار العزيز في عسكر مصر

وحصر أخاه الأفضل بدمشق وأرسل الأفضل إلى عمه العادل وأخيه الظاهر وابن عمه المنصور صاحب حماه يستنجدهم، فساروا إلى دمشق واصلحوا بين الأخوين ورجع العزيز إلى مصر، ورجع كل ملك إلى بلده وأقبل الأفضل بدمشق على الشرب وسماع الأغاني ليلاً ونهاراً، وأشاع ندماؤه أن عمه العادل حسن له ذلك، فكان يعمله بالخفية فأنشده العادل:

فلا خير في اللذات ... ما دونها ستر

فقبل وصية عمه، وتظاهر بذلك وفوض أمر المملكة إلى وزيره ضياء الدين ابن الأثير الجزري يدبرها برأيه الفاسد، ثم إن الملك الأفضل أظهر التوبة عن ذلك، وأزال المنكر، وواظب على الصلوات وشرع في نسخ مصحف بيده.

سنة إحدى وتسعين إلى سنة ستمائة

وفي سنة إحدى وتسعين

سار ابن القصاب وزير الخليفة بعد تملكه خوزستان إلى همذان وملكها، وأخذ يستولي على تلك البلاد للخليفة، فتوفي مؤيد الدين بن القصاب في أوائل شعبان سنة اثنتين وتسعين.

وفيها غزا يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ملك الغرب بالأندلس الفرنج، وجرى بينهم مصاف عظيم انتصر فيه المسلمون، وقتل من الفرنج ما لا يحصى وولوا منهزمين وغنم المسلمون مالا يحصى.

وفيها جهز الخليفة الإمام الناصر عسكراً مع مملوك له اسمه سيف الدين طغريل، فاستولى على أصبهان.

وفيها قدم مماليك البهلوان عليهم مملوكاً من البهلوانية اسمه كوكجا فعظم أمره، واستولى على الري وهمذان.

وفيها عاود الملك العزيز عثمان قصد الشام ومنازلة أخيه الملك الأفضل وسار ونزل الفوار من أرض السواد من بلاد دمشق، واضطرب بعض أمرائه عليه، وهم طائفة من الأسدية وفارقوه فبادر العزيز إلى مصر بمن بقي معه من العسكر، وكان الأفضل قد استنجد بعمه العادل لما قصده أخوه العزيز، فلما رحل العزيز إلى مصر رحل العادل والأفضل ومن انضم إليهما من الأسدية في إثر العزيز طالبين مصر، وساروا حتى نزلوا على بلبيس، وقد ترك العزيز فيها جماعة من الصلاحية وقصد الأفضل مناجزتهم بالقتال ، فمنعه عمه العادل فقصد الأفضل المسير إلى مصر والاستيلاء عليها، فمنعه عمه العادل أيضاً، وقال مصر لك متى شئت ، وكان العادل مع العزيز في الباطن، وقال،ارسل الى القاضي الفاضل ليصلح بين الأخوين،وكان القاضي الفاضل قد اعتزل عن ملابستهما لما رأى من فساد أحوالهما، فدخل عليه الملك العزيز وسأله فتوجه إلى القاهرة إلى الملك العادل، واجتمع به واتفقا على أن يصلحا بين الأخوين، فأصلحا بينهما وأقام العادل بمصر عند العزيز على حسب تقرير أمور المملكة ، وعاد الأفضل إلى دمشق.

وفيها كان بين يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن وبين الفرنج بالأندلس شمالي قرطبة حروب عظيمة، انتصر فيها يعقوب وانهزم الفرنج.

وفي سنة اثنتين وتسعين

سار شهاب الدين الغوري صاحب غزنة إلى بلاد الهند وفتح قلعة عظيمة تسمى بهنكربالأمان ثم سار إلى قلعة كواكبر بينهما نحو خمسة أيام ، فصالحه أصحابها على مال حملوه إليه، ثم سار في بلاد الهند فغنم وأسر وعاد إلى غزنة.

وفيها سلم صدر الدين محمد بن عبد اللطيف الخجندي رئيس الشافعية أصفهان إلى عسكر الخليفة ، فقتله سنقر الطويل شحنة الخليفة بأصبهان بسبب منافرة جرت بينهما.

وفيها نقل الملك الأفضل أباه صلاح الدين من قلعة دمشق إلى التربة بالمدينة، وكان مدة لبثه في القلعة ثلاث سنين، ولزم الملك الأفضل الزهد والقناعة ، وأموره مسلمة إلى وزيره ضياء الدين بن الأثير الجزري، وقد اختلفت الأحوال به، وكثر شاكوه وقل شاكروه، فلما بلغ العادل والعزيز بمصر اضطراب الأمور على الأفضل اتفق العادل والعزيز على أن يأخذا دمشق ويسلمها العزيز إلى العادل وتكون السكة والخطبة للعزيز بسائر البلاد، كما كانت لأبيه، فخرجا وسارا من مصر، فأرسل الملك الأفضل إليهما فلك الدين أحد أمرائه، وكان فلك الدين أخا الملك العادل لأمه، واجتمع فلك الدين بالملك العادل فأكرمه واظهر الإجابة إلى ما طلبه، وأتم العادل والعزيز السير حتى نازلا دمشق وقد حصنها الملك الأفضل، فكاتب بعض الأمراء من داخل الملك العادل وصاروا معه أنهم يسلمون المدينة إليه ، فزحف الملك العادل والعزيز ضحى يوم الأربعاء سادس عشرين رجب هذه السنة، فدخل الملك العزيز من باب الفرج، والعادل من باب توما، فأجاب الملك الأفضل إلى تسليم القلعة ، وانتقل منها بأهله وأصحابه وأخرج وزيره ضياء الدين بن الأثير في صندوق خوفاً عليه من الفتك ، وكان الملك الظافر خضر بن السلطان صلاح الدين صاحب بصرى مع أخيه الملك الأفضل ومعاضداً له، فأخذت منه بصرى أيضاً فلحق بأخيه الملك الظاهر، وأقام عنده بحلب وأعطي الملك الأفضل صرخد، فسار إليها بأهله ، واستوطنها ودخل الملك العزيز إلى دمشق، يوم الأربعاء رابع شعبان ثم سلم دمشق إلى عمه الملك العادل، على حكم ما كان وقع عليه اتفاقهما، وتسلمها الملك العادل ، ورحل الملك العزيز من دمشق عشية يوم الاثنين تاسع شعبان ،

وكانت مدة ملك الأفضل لدمشق ثلاث سنين وشهراً، وأبقى الملك العادل السكة والخطبة بدمشق للملك العزيز، ولما استقر الملك الأفضل بصرخد كتب إلى الخليفة الإمام الناصر يشكو من عمه أبي بكر وأخيه العزيز عثمان وأول الكتاب:

مولاي إن أبا بكر وصاحبه عثمان
قد غصبا بالسيف حق علي
فانظر إلى حظ هذا الاسم
كيف لقي من الأواخر ما لاقى من الأول

فكتب الملك الناصر جوابه:

وافى كتابك يا بن يوسف معلناً
بالصدق يخبر أن أصلك طاهر
غصبوا علياً حقه إذ لم يكن
بعد النبي له بيثرب ناصر
فاصبر فإن غداً عليه حسابهم
وابشر فإن ناصرك الإمام الناصر

وفي سنة ثلاث وتسعين

توفي بنيسابور ملكشاه بن تكش، وكان أبوه خوارزم شاه قد جعله فيها، وجعل له الحكم على تلك البلاد، وجعله ولي عهده، وخلف ملكشاه ولداً اسمه هندوخان فلما مات ملكشاه جعل تكش في نيسابور ولده الآخر قطب الدين محمد، وهو الذي ملك بعد أبيه تكش وجعل لقبه علاء الدين ، وكان بين الأخوين ملكشاه ومحمد عداوة مستحكمة.

وفيها توفي في شوال سيف الإسلام ظهير الدين طغتكين بن أيوب صاحب اليمن، ولما مات سيف الإسلام كان ولده الملك المعز اسماعيل

بالسرين، فبعث إليه جمال الدولة كافور جماعة من الجند فعرفوه بوفاة والده، ومضوا به إلى ممالك أبيه ، فسلموها إليه وكانت وفاة سيف الإسلام بزبيد ، وكان شديد السيرة مضيقاً على رعيته يشتري أموال التجار لنفسه ويبيعها كيف شاء، وجمع من الأموال ما لا يحصى، حتى أنه كان يسبك الذهب ويجعله كالطاحون ويدخره.

وفي سنة أربع وتسعين

في المحرم توفي عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي بن آقسنقر صاحب سنجار والخابور والرقة، وكان حسن السيرة متواضعاً يحب العلم وأهله، إلا أنه كان شديد البخل، وملك بعده ولده قطب الدين محمد، وتولى تدبير دولته مجاهد الدين يرنقش مملوك أبيه.

وفيها في جمادى الأولى سار نور الدين أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنكي صاحب الموصل إلى نصيبين فأخذها من ابن عمه قطب الدين محمد بن زنكي، فأرسل قطب الدين واستنجد الملك العادل، فسار الملك العادل إلى البلاد الجزرية ، ففارق نور الدين أرسلان شاه نصيبين، وعاد إلى الموصل فعاد قطب الدين محمد بن زنكي وملك نصيبين.

وفيها سار خوارزم شاه تكش إلى بخارى وهي للخطا وحاصرها وملكها وكان تكش أعور، فأخذ أهل بخارى في مدة الحصار كلباً أعور وألبسوه قباء وقالوا للخوارزمية: هذا سلطانكم ورموه في المنجنيق إليهم، فلما ملكها تكش أحسن إلى أهل بخارى وفرق فيهم أموالاً ولم يؤاخذهم بما فعلوه في حقه.

وفيها وصل جمع عظيم من الفرنج إلى الساحل واستولوا على قلعة بيروت، فسار الملك العادل ونزل على تل العجول، وأتته النجدة، ووصل

إليه سنقر الكبير صاحب القدس وميمون القصري صاحب نابلس، وسار الملك العادل إلى يافا وفتحها بالسيف وقتل مقاتلتها، وسبى نساءها وصبيانها، وكان هذا الفتح ثالث فتح لها، ونازلت الفرنج تبنين، فأرسل الملك العادل إلى الملك العزيز صاحب مصر، وسار الملك العزيز بعساكره واجتمع بعمه الملك العادل على تبنين، فرحل الفرنج على أعقابهم إلى صور، ثم رحل الملك العزيز إلى مصر، وترك غالب العسكر مع عمه، وجعل إليه أمر الحرب والصلح.

ومات في هذه المدة سنقر الكبير، فجعل الملك العادل أمر القدس إلى صارم الدين قطلق مملوك عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب، ولما عاد الملك العزيز إلى مصر في هذه المرة مدحه القاضي ابن سناء الملك بقصيدة منها:

قدمت بالسعد وبالمغنم
كذا قدوم الملك المقدم
أغثت تبنين وخلصتها
فريسة من ماضغي ضيغم
شنشنة تعرف من يوسف
في النصر لا تعرف من أخزم
مقدم صار جمادى به
كمثل ذي الحجة في الموسم

ثم طاول الملك العادل الفرنج فطلبوا الهدنة، واستقرت بينهم ثلاث سنين، ورجع الملك العادل إلى دمشق، ثم سار الملك العادل من دمشق إلى ماردين وحصرها وصاحبها حينئذ حسام الدين بولق أرسلان بن ألبي ابن تمرتاش بن ايلغازي، بن أرتق، وليس لبولق من الحكم شيء وإنما الحكم إلى مملوك أبيه البقش.

وفيها توفي بدر الدين هزار دينار صاحب خلاط آقسنقر وقد تقدم

ذكر ملكه لخلاط سنة تسع وثمانين وخمسمائة ولما توفي هزار دينار استولى على خلاط خشداشه قتلغ وكان مملوكاً أرمني الأصل من السناسنة، فملك خلاط سبعة أيام، ثم اجتمع عليه الناس وأنزلوه من القلعة وقتلوه، واتفق كبراء الدولة وأحضروا محمد بن بكتمر من القلعة التي كان معتقلاً فيها واسمها أرزاس وأقاموه في مملكة خلاط، ولقبوه الملك المنصور، وقام بتدبيره شجاع الدين قتلغ الدوادار ، وكان قتلغ المذكور قفجاقي دوادار لشاه أرمن سكمان بن إبراهيم، واستقر محمد بن بكتمر كذلك إلى سنة اثنتين وستمائة، فقبض على أتابكه قتلغ الدوادار وحبسه ثم قتله ، فخرج عليه مملوك لشاه أرمن يقال له عز الدين بلبان، واتفق العسكر مع بلبان المذكور وقبضوا على محمد بن بكتمر وحبسوه ثم خنقوه ورموه من سور القلعة إلى أسفل وقالوا وقع، واستمر بلبان في مملكة خلاط دون سنة، وقتله بعض أصحاب طغريل بن قليج أرسلان صاحب أرزن، وقصد طغريل أن يتسلم خلاط، فلم يجبه أهلها وعصوا عليه فعاد إلى أرزن، ثم وصل الملك الأوحد أيوب ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب وتسلم خلاط وملكها ثمان سنين.

وفي سنة خمس وتسعين

منتصف ليلة السابع والعشرين من المحرم توفي الملك العزيز عماد الدين عثمان بن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، وكان قد طلع إلى الصيد فركض خلف ذئب وتقنطر وحم في سابع المحرم بجهة الفيوم، فعاد إلى الأهرام وقد اشتدت حماه، ودخل القاهرة يوم عاشوراء وحدث به يرقان وقرحة في الأمعاء ، واحتبس طبعه، فمات في التاريخ المذكور، وكانت مدة ملكه ست سنين إلا شهراً، وعمره سبعاً وعشرين سنة وأشهراً، وكان في غاية السماحة والكرم والعدل والرفق بالرعية والإحسان إليهم، ففجعت الرعية بموته فجعة عظيمة، وكان الغالب على دولة الملك العزيز فخر الدين جهاركس، فأقام في الملك الملك المنصور

محمد بن الملك العزيز، واتفقت الأمراء على احضار واحد من بني أيوب، وعملوا مشورة بحضور القاضي الفاضل فأشار بالملك الأفضل، وهو حينئذ بصرخد فأرسلوا إليه فسار محثا، ووصل إلى القاهرة على آنه أتابك الملك المنصور بن الملك العزيز وكان عمر الملك المنصور حينئذ تسع سنين وشهوراً، وكان مسير الملك الأفضل من صرخد لليلتين بقيتا من صفر في تسعة عشر نفراً متنكراً خوفاً من أصحاب عمه العادل، فإن غالب تلك البلاد كانت له، فوصل بلبيس خامس ربيع الآخر، ثم سار الملك الأفضل إلى القاهرة فخرج الملك المنصور بن العزيز للقائه فترجل له عمه الملك الأفضل ودخل بين يديه إلى دار الوزارة، وهي كانت مقر السلطنة، ولما وصل الملك الأفضل إلى بلبيس التقاه العسكر فتنكر منه فخر الدين جهاركس وفارقه، فتبعه عدة من العسكر وساروا إلى الشام وكاتبوا الملك العادل وهو محاصر ماردين، وأرسل الملك الظاهر إلى أخيه الملك الأفضل يسير يقصد دمشق وأخذها من عمه الملك العادل، وأن ينتهز الفرصة لاشتغال العادل بحصار ماردين، فبرز الملك الأفضل من مصر، وسار إلى دمشق وبلغ الملك العادل وصوله إلى دمشق فترك على ماردين الملك الكامل، وسار الملك العادل وسبق الأفضل إلى دمشق فدخل قبل نزول الأفضل إليها بيومين، ونزل الملك الأفضل على دمشق ثالث عشر شعبان هذه السنة، وزحف من الغد على البلد وجرى بينهم قتال وهجم بعض عسكره إلى المدينة حتى وصلوا إلى باب البريد ولم يمدهم العسكر ، فتكاثر أصحاب الملك العادل وأخرجوهم من البلد ثم تخاذل العسكر فتأخر الأفضل إلى ذيل عقبة الكسوه، ثم وصل إلى الملك الأفضل أخوه الظاهر صاحب حلب، فعاد إلى مضايقة دمشق، ودام الحصار عليها، وقلت الأقوات عند الملك العادل وعند أهل دمشق، وأشرف الأفضل والظاهر على أخذ دمشق، وعزم العادل على تسليم البلد لولا ما حصل بين الأخوين الأفضل والظاهر من الخلف، وخرجت السنة وهم على ذلك، وكان منهم ما سنذكره إن شاء الله تعالى.

وفيها قصد الملك المنصور محمد بن الملك المظفر تقي الدين عمر صاحب حماه بارين، وبها نواب عز الدين إبراهيم بن شمس الدين محمد ابن المقدم، وحاصرها وكان الأمير عز الدين مع الملك العادل محصوراً بدمشق، ونصب الملك المنصور عليها المناجنيق وجرح حال الزحف، ثم فتحها تاسع عشرين ذي القعدة، وأقام ببارين مدة حتى أصلح أمورها.

وفيها في جمادى الآخرة توفي أبو يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن صاحب المغرب والأندلس بمدينة سلا، وكانت ولايته خمس عشرة سنة، وكان يتظاهر بمذهب الظاهرية، وأعرض عن مذهب مالك،وعمره ثمان وأربعون سنة وتلقب بالمنصور، ولما مات يعقوب ملك ابنه محمد وتلقب بالناصر، ومولد محمد سنة ست وسبعين وخمسمائة، وعبد المؤمن وبنوه جميعهم كانوا يسمون بأمير المؤمنين.

وفيها رحل عسكر الملك العادل مع ابنه الملك الكامل عن حصار ماردين.

وفيها كانت فتنة عظيمة في عسكر غياث الدين محمد ملك الغورية وهو بفيروزكوه، وسببها أن الإمام فخر الدين الرازي محمد بن عمر كان قد قدم إلى غياث الدين، فبالغ غياث الدين في إكرامه، وبنى له مدرسة بقرب جامع هراة، فعظم ذلك على الكرامية وهم كثيرون بهراة، ومذهبهم التجسيم والتشبيه، وكان الغورية كلهم كرامية، فكرهوا الإمام فخر الدين لكونه شافعي، وهو يناقض مذهبهم فاتفق أن فقهاء الكرامية والحنفية والشفعوية حضروا بفيروزكوه عند غياث الدين للمناظرة ، وحضر الإمام فخر الدين الرازي والقاضي عبد المجيد بن عمر المعروف ابن القدوة وهو من الكرامية الهيصمية، وله عندهم محل كبير لزهده وعلمه، فتكلم الرازي فاعترض عليه ابن القدوه وطال الكلام، فقام غياث الدين فاستطال فخر الدين الرازي على ابن القدوه وشتمه، وبالغ في أذاه وابن

القدوة لايزيده على أن يقول لايفعل مولانا، لا واخذك الله فصعب على الملك ضياء الدين ، وهو ابن عم غياث الدين، وزوج ابنته وشكا إلى غياث الدين من فخر الدين الرازي ونسبه إلى الزندقة، ومذهب الفلاسفة، فلم يصغ إليه غياث الدين، فلما كان الغد وعظ الناس ابن عمر بن القدوة بالجامع وقال بعد حمد الله والصلاة على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم(ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين[١٧])أيها الناس إننا لانقول إلاّ ما صح عندنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأما علم أرسطو وكفريات ابن سينا، وفلسفة الفارابي فلا نعلمها ، فلأي حال شتم بالأمس شيخ من شيوخ الإسلام يذب عن دين الله وسنة نبيه، وبكى وبكى الكرامية معه واستغاثوا، وثار الناس من كل جانب وامتلأ البلد فتنة ، وبلغ ذلك السلطان غياث الدين فبعث جماعة سكنوا الناس ووعدهم باخراج فخر الدين الرازي من عندهم، وتقدم إلى فخر الدين بالعود إلى هراة فعاد إليها.

وفيها في ربيع الأول توفي مجاهد الدين قيماز بقلعة الموصل، وهو الحاكم بدولة نور الدين أرسلان صاحب الموصل، وقيماز المذكور هو الذي كان حاكماً على عز الدين مسعود والد نور الدين أرسلان حتى قبض عليه مسعود، ثم أخرجه بعد مدة وكان قيماز عاقلاً أديباً فاضلاً في الفقه على مذهب الإمام أبي حنيفة وبنى عدة جوامع وربط ومدارس.

وفيها فارق غياث الدين ملك الغورية مذهب الكرامية وصار شافعي المذهب.

وفي سنة ست وتسعين

كان في أوائلها الملكان الأفضل والظاهر على دمشق محاصريها، واتفق وقوع الخلف بين الأخوين الأفضل والظاهر وسببه أنه كان للملك

الظاهر مملوك يحبه اسمه أيبك، ففقد ووجد عليه الملك الظاهر وجداً عظيماً، وتوهم أنه دخل دمشق فأرسل يكشف خبره واطلع الملك العادل وهو محصور على القضية، فأرسل إلى الظاهر يقول :إن محمود بن السكري أفسد مملوكك وحمله إلى الأفضل أخيك ،فقبض الظاهر على ابن السكري، فظهر المملوك عنده، فتغير على أخيه الأفضل ، وترك قتال الملك العادل، وظهر الفشل في العسكر ،فتأخر الأفضل والظاهر عن دمشق وأقاما بمرج الصفر إلى أواخر صفر، ثم سارا إلى رأس الماء ليقيما إلى أن ينسلخ الشتاء، ثم انثنى عزمهما وسار الأفضل إلى مصر والظاهر إلى حلب على القريتين، ولما تفرقا خرج الملك العادل من دمشق وسار في إثر الأفضل إلى مصر ، فلما وصل العسكر إلى مصر تفرقت عساكره لأجل الربيع ، وأدركه عمه العادل فخرج الأفضل وضرب معه مصافاً فانكسر الأفضل وانهزم إلى القاهرة، ونازل العادل القاهرة ثمانية أيام، فأجاب الأفضل إلى تسليمها على أن يعوض عنها ميافارقين وحاني وسميساط، فأجابه العادل إلى ذلك ولم يف له به، وكان دخول العادل إلى القاهرة في حادي عشرين ربيع الآخر هذه السنة.

قال ابن الأثير: كان دخول العادل إلى القاهرة يوم السبت ثامن عشرين ربيع الآخر وتوفي القاضي الفاضل في سابع عشرة ثم سافر الملك الأفضل إلى صرخد(١٨) ..

وأقام العادل بمصر على أنه أتابك الملك المنصور محمد بن العزيز عثمان مدة يسيرة ، ثم أزال الملك المنصور محمد واستقل العادل بالسلطنة، ولما استقرت المملكة للملك العادل أرسل إليه الملك المنصور صاحب حماه يعتذر إليه مما وقع فيه بسبب أخذ بارين من ابن المقدم، فقبل الملك العادل عذره وأمره برد بارين إلى ابن المقدم، فاعتذر الملك المنصور عنها لقربها من حماة، ونزل عن منبج وقلعة نجم لابن المقدم عوضاً عن بارين، فرضي ابن المقدم بذلك لأنها خير من بعرين بكثير،

وتسلمها عز الدين إبراهيم بن شمس الدين محمد بن عبد الملك المقدم، وكان له أيضاً فامية وكفر طاب، وخمس وعشرين ضيعة من المعرة، وكذلك كاتب الملك الظاهر صاحب حلب عمه الملك العادل وصالحه وخطب له بحلب وبلادها ، وضرب السكة باسمه، واشترط الملك العادل على صاحب حلب أن يكون خمسمائة فارس من خيار عسكر حلب في خدمة الملك العادل كلما خرج إلى البيكار، والتزم الملك الظاهر صاحب حلب بذلك وقصر النيل في هذه السنة تقصيراً عظيماً حتى أنه لم يبلغ أربعة عشر ذراعاً.

وفيها في العشرين من رمضان توفي خوارزم شاه تكش بن أرسلان بن أطز بن محمد بن أنوشتكين صاحب خوارزم وبعض خراسان والري وغيرها الجبلية شهر ستانية، وولي الملك بعده ابنه محمد بن تكش وكان لقبه قطب الدين محمد فغيره إلى علاء الدين وكان تكش عادلاً حسن السيرة ، يعرف الفقه على مذهب أبي حنيفة والأصول، ولما بلغ غياث الدين ملك الغورية موت خوارزم شاه تكش ضربت نوبيته ثلاثة أيام، وجلس للعزاء مع ما كان بينهما من العداوة المستحكمة وهذا خلاف ما فعله بكتمر بعد موت السلطان صلاح الدين، ولما استقر في المملكة محمد بن تكش هرب ابن أخيه هندوخان بن ملكشاه بن تكش إلى غياث الدين ملك الغورية يستنصره على عمه، فأكرمه غياث الدين ووعده القيام معه.

وفي سنة سبع وتسعين

توفي عز الدين إبراهيم بن محمد بن عبد الملك المقدم وصارت بلاده بعده وهي: منبج، وقلعة نجم، وفامية، وكفر طاب لأخيه شمس الدين عبد الملك بن محمد بن بن عبد الملك المقدم، ولما استقر الشمس عبد الملك بمنبج سار إليها الملك الظاهر وحصرها وملك منبج، وعصى عبد

الملك بن المقدم بالقلعة فحصره، ونزل عبد الملك بالأمان فاعتقله الملك الظاهر، وملك قلعة منبج، وبعد أن فرغ من منبج سار إلى قلعة نجم ، وفيها نائب ابن المقدم فحصرها وملكها في آخر رجب هذه السنة، وأرسل الملك الظاهر إلى الملك المنصور صاحب حماه يبذل له منبج وقلعة نجم على أن يصير معه على الملك العادل، فاعتذر الملك المنصور باليمين التي في عنقه للملك العادل، فلما أيس الملك الظاهر منه سار إلى المعرة ، وأقطع بلادها واستولى على كفر طاب، وكانت لابن المقدم ، ثم سار إلى فامية وبها قراقوش نائب ابن المقدم، وأرسل الملك الظاهر أحضر ابن المقدم من حلب، وكان معتقلاً بها وأحضر معه أصحابه الذين اعتقلهم وضربهم قدام قراقوش ليسلم فامية، فامتنع ، فأمر الملك الظاهر بضرب عبد الملك بن المقدم ، فضرب ضرباً عظيماً وبقي يستغيث، فأمر قراقوش فضربت النفارات على قلعة فامية لئلا يسمع أهل البلاد صراخه، ولم يسلم القلعة ، فرحل عنها الملك الظاهر، وتوجه إلى حماه وحاصرها لثلاث بقين من شعبان هذه السنة، ونزل شمال البلد وشعث الترية التقوية وبعض البساتين وزحف من جهة الباب الغربي وقاتل قتالاً شديداً، ثم زحف في آخر شعبان من الباب الغربي والباب القبلي وباب العميان وجرى بينهم قتال شديد، وجرح الملك الظاهر بسهم في ساقه ، واستمر الحرب إلى أيام من رمضان، فلما لم يحصل على غرض صالح الملك المنصور على مال حمله إليه قيل أنه ثلاثين ألف دينار صورية، ثم رحل الملك الظاهر إلى دمشق وبها الملك المعظم بن الملك العادل، فنازلها الملك الظاهر هو وأخوه الملك الأفضل، وانضم إليهما فارس الدين ميمون القصري صاحب نابلس ومن وافقه من الأمراء الصلاحية، واستقرت القاعدة بين الأخوين الأفضل والظاهر أنهما متى تملكا دمشق يتسلمها الأفضل،ثم يسيران إلى الملك العادل بمصر فيأخذاها منه ويتسلمها الأفضل وتسلم دمشق حينئذ إلى الملك الظاهر صاحب حلب بحيث تبقى مصر للملك الأفضل ويصير الشام جميعه

للظاهر، وكان قد تخلف من الأمراء الصلاحية عنهما فخر الدين جهاركس وزين الدين قراجا، فأرسل الملك الأفضل وسلم صرخد إلى زين الدين قراجا، ونقل الأفضل ولديه وأهله إلى عند الملك المجاهد بحمص، وبلغ الملك العادل حصار الأخوين لدمشق فخرج بعساكر مصر، وأقام بنابلس ولم يجسر على قتالهما واشتدت مصادمة الملكين الأفضل والظاهر لدمشق وتعلق النقابون بسورها، فلما شاهد الملك الظاهر صاحب حلب ذلك حسد أخاه الأفضل على دمشق، وقال له: أريد أن تسلم دمشق إليّ الآن، فقال له: إن حريمي حريمك وهم على الأرض، وهب هذه البلد لك فاجعلها لي إلى حين تملك مصر وتأخذه، فامتنع الظاهر عن قبول ذلك، وكان قتال العسكر والأمراء الصلاحية إنما هو لأجل الأفضل، فقال لهم الأفضل: إن كان قتالكم لأجلي فاتركوا القتال وصالحوا الملك العادل، وإن كان قتالكم لأجل أخي الملك الظاهر فإياكم فها أنتم وإياها، فقالوا: إنما قتالنا لأجلك وتخلوا عن القتال، وأرسلوا صالحوا الملك العادل، وخرجت السنة وقد تفرقت العساكر، فرحل الظاهر عن دمشق في أول المحرم سنة ثمان وتسعين، وسار الأفضل إلى حمص.

وفيها توفي العماد الكاتب

وفيها سار الملك غياث الدين ملك الغورية بعساكره، واستدعى أخاه شهاب الدين من غزنة فسار إليه بعساكره أيضاً، وسار غياث الدين إلى خراسان، واستولى على ما كان لخوارزم شاه بخراسان، ولما ملك غياث الدين مرو سلمها إلى هندوخان بن ملكشاه بن خوارزم شاه تكش الذي هرب من عمه محمد إلى غياث الدين، ثم استولى غياث الدين على سرخس، وطوس، ونيسابور، وغيرها، ولما استقر ت هذه البلاد لغياث الدين عاد إلى بلاده، وتوجه أخوه شهاب الدين إلى بلاد الهند فغنم وفتح نهرواله من أعظم بلاد الهند.

وفيها في رمضان ملك ركن الدين سليمان بن قليج أرسلان مدينة ملطية، وكانت لأخيه معز الدين قيصر شاه بن قليج أرسلان، ثم سار سليمان إلى ارزن الروم وكانت لمحمد ابن صليق، وهو من بيت قديم ملكوا أرزن الروم فخرج صاحب ارزن ليصالح سليمان فقبض عليه، وأخذ البلد منه، وهذا محمد آخر الملوك من أهل بيته.

وفيها توفي سقمان بن محمد بن قرا أرسلان بن داود بن سقمان بن أرتق.

وفي سنة ثمان وتسعين

بعد رحيل الملكين الأفضل والظاهر عن دمشق قدم الملك العادل، وكان قد سار ميمون القصري مع الملك الظاهر فأقطعه أعزاز. وفيها خرب الملك الظاهر قلعة منبج خوفاً من أن تؤخذ منه، وأقطع منبج بعد ذلك لعماد الدين أحمد بن سيف الدين علي ابن المشطوب. وفيها أرسل قراقوش نائب عبد الملك بن محمد بن عبد الملك بن المقدم بفامية إلى الملك الظاهر يبذل تسليم فامية بشرط أن يعطى شمس الدين عبد الملك ابن المقدم اقطاعاً يرضاه، فأقطعه الملك الظاهر الراوندان وكفرطاب، ومفردة المعرة، وهوعشرون ضيعة معينة من بلاد المعرة، وتسليم فامية، ثم إن عبد الملك بن المقدم عصى بالراوندان فسار إليه الملك الظاهر واستنزله منها وابعده فلحق ابن المقدم بالملك العادل، فأحسن إليه.

وفيها سار الملك العادل من دمشق ووصل حماه، ونزل على تل صفرون، وقام الملك المنصور صاحب حماه بجميع وظائفه وكلفه، وبلغ الظاهر صاحب حلب وصول عمه إلى حماه بنية قصده ومحاصرته بحلب، فاستعد للحصار وراسل عمه ولاطفه واستعد للصلح فوقع الصلح، وانتزعت مفردة المعرة، واستقرت للملك المنصور صاحب حماه، وأخذت من الملك الظاهر أيضاً قلعة نجم وسلمت إلى الملك الأفضل، وكان له

سروج وسميساط، وسلم الملك العادل حران وما معها لولده الملك الأشرف مظفر الدين موسى، وسيره إلى الشرق وكان الملك الأوحد بن الملك العادل بميافارقين، والملك الحافظ نور الدين أرسلان شاه بن الملك العادل بقلعة جعبر، ولما استقر الصلح بين العادل والظاهر رجع العادل إلى دمشق وأقام بها، وقد انتظمت الممالك الشامية والشرقية والديار المصرية كلها في سلك ملكه، وخطب له على منابرها، وخطب له فيها باسمه.

وفيها عاد خوارزم شاه محمد بن تكش واسترجع البلاد التي أخذها الغورية من خراسان إلى ملكه.

وفي سنة تسع وتسعين

في المحرم توفي فلك الدين سلطان أخو الملك العادل لأمه، وهو الذي تنسب إليه المدرسة الفلكية بدمشق.